مبادرة

القراءة بالمجان

الكتاب: عودة أمي وقصص أخرى/ قصص

الكاتب: محسن صالح

رقم الإيداع: 2018/ 17154

ISBN: 978-977-800-089-4

تصميم الغلاف: محمد عبد القوي مصيلحي

تدقيق لغوي- تنسيق داخلي:

www.sekoon.com

دار ليان للنشر والتوزيع

مدير النشر: فتحي المزين: 01282288056

Email: layanpub@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

محسن صالح

عودة أمي

وقصص أخرى

لبنان
للنشر
والتوزيع

إهداء

إلى الأستاذة الكاتبة/ هدى أنور

التي لولا حدبها ورعايتها ماكان هذا الكتاب

فتحية لها ولكل عائلة المعتكف الكتابي

و.. إلى الرائع/ فتحي المزين

مع خالص تحياتي

"منامن" وألمٌ في الصدر

الساعة السادسة مساء، دقات الوقت لساعة الحائط عاليةٌ صاخبةٌ. رنينها في الصالة الفسيحة لشقتي يدق على الأشياء.. الكراسي.. اللوحات التي تملأ الحائط في جنبات الشقة الممتدة بطول واجهة العمارة. حتى الأدعية المذهبة والتي تؤطرها البراويز الخشبية المزركشة ويعلوها لوحٌ زجاجيٌّ شفاف هي الأخرى أحِسُ بتململها من هذه الدقات النحاسية الرنانة كأنها وخزاتُ إبرٍ حادة في العظم.

ورقة التحليل ترقد في يدي لقد استلمتها للتو من معمل التحاليل الكائن في العمارة التي أقطن بها في الدور الثاني، الأرقام التي تنتشر على طول ورقتيِّ التحليل لا تدل –حسب علمي – على أي شيء غير عادي؛ فالأرقام كلها تقع في المسافة بين الحدين الأدنى والأعلى.. كل الأرقام تُطمئِن بالخير.

"منامن" اسم الدلع لصغيرتي "منى".. تجلس بجواري، سمراء اللون، تحمل أعوامها التسعة على كتفيها. يتحرك رأسها الصغير يمنة ويسرة وهي تتطلع إلى وجهي بعينيها الصغيرتين ولا تتكلم.. إنها مشغولة بمحمولها الصغير والسيارات التي لا بُدَّ من أن تتفادها في لعبتها به وإلا خسرت المزيد من الفلوس كما تقول.

ضحكتُ في داخلي وأنا أمسح رأسها الصغير وأقبِّلها بسرعة دون أن أعطلها عن متابعة لعبتها حتى لا تخسر المزيد من النقود.

هناك ساعة باقية بالتمام والكمال قبيل حضور طبيب القلب في عيادته التي تسيطر على جزءٍ من الدور الثالث. شاب في أوائل الأربعينيات أو يزيد. نشيطٌ في حركاته تعلو محياه ابتسامة لا تفهمها تستقطر منه الإجابة والرد على تساؤلاتك استقطارا.. تلوح منِّي نظرة إلى "منامن" أسألها عن إحساسها والألم الذي في صدرها، فتقول لي:

– حاسة بشكة هنا ف صدري بابا زي الإبرة. دا كان الضهر..

يمتقع وجهي من كلامها ولا أزيد حتى لا أنقل إليها قلقي وتوتري. تمر الدقائق ثقيلة على صدري، وسيجارتي لا تغادر أصابع يدي اليمنى في توترٍ غَريبٍ طوال مدة هذه الساعة، حتى امتلأت الصالة عن آخرها بدخان سجائري على غير عادتي، حيث أدخن دائمًا في الشرفة مع كوب الشاي والجريدة اليومية ولا أدخن أبدًا داخل الشقة.

تلوح من الطبيب ذي النظارة السوداء نظرةً إلى التحاليل ويقول

بأنها مُحيِّرة لا تخبرنا بـ "لا أو "نعم" بخصوص تشخيص محدد. المهم أن الأمور عادية، في هذه الأثناء نظرت إليه وأخبرته:

-لازم أعمل لها إيكو -رسم لشرايين القلب- حتى أطمئن.

توقف الطبيب فترة يفكر في كلامي وقال:

- لو مُصِرّ، "الإيكو" ب 120 جنيه.

رددت عليه:

-أرجوك، أنا عايز اطّمن بأي تمن.

تنفست الصعداء حينما أومأ بالموافقة والتي على إثرها صعدت صغيرتي إلى سرير الكشف وكشفت عن صدرها الصغير استعدادًا لجهاز المسح الذي يحركه الطبيب كفأرة الحاسب الآلي على صدرها لأرى خيالاتٍ وأسمع أصواتًا مصاحبة لها كأنها ضخّ المياه في المواسير. أخذَتْ الصور تتابع على الشاشة أمام ناظري، وفجأة وجدت الطبيب يركز في نقطة زرقاء على الشاشة ويحرك حولها خطوطا وإحداثيات عديدة ثم يصدر أمر الطباعة لتخرج صور صغيرة سوداء وبها علامات بيضاء وحروف بالإنجليزية.

بعدها سكت الطبيب وكأنه يفكر، سألته بتعجل:

- في حاجة يادكتور، طمني..

ردَّ باقتضاب شديد وبحِدَّة:

- ارتجاع بسيط في الصمام الميترالي.

سكت كأنني ابتلعت حجرًا جرانيتيًّا سدَّ كل منافذ صدري وتنفُّسي، رجعت خطوتين أتلمس يديّ المقعد الذي كنت أجلس عليه منذ برهة، وجلست أفرك في يدي من القلق والتوتر اللذين نشبا أظافرهما في كل كياني، حبات العرق أخذت طريقها إلى جبهتي وأماكن أخرى من وجهي..

حانت من الطبيب التفاتة إليَّ وقال لي:

– أمر عادي، معظم الناس عندهم هذا الارتجاع ولا يشعرون به. ده عادي ومفيش قلق.

ثم أردف قائلاً:

– لا بُد من حقنة البنسلين كل ثلاثة أسابيع ضروري، وهنعمل "إيكو" تاني بعد ستة شهور.

لم أرَ الطبيب وهو يكتب الروشتة ولم أرَ شيئًا مما في العيادة أو أحدًا ممن كانوا هناك، كل الأشياء تداخلت خطوطها أمام عيني. المهم أن يدي احتضنت يد "منامن" صغيرتي ونحن نصعد درجات السلم بتؤدة إلى شقتنا في الدور الخامس، ودوامة الموقف تلفني داخلها بلا هوادة.

ضغطت على الجرس ووجدت الباب يُفتَح بسرعة وزوجتي تتطلع إليَّ بعينين قلقتين وتتفحصان وجهينا تحريًا لأيِّ علاماتٍ تجيب عن أسئلتها. تحسست القلق في سكوتي، أخذَتْ ورقة مسح شرايين القلب "الإيكو" ونظرت إليها دونما أن تفهم شيئًا، هنا قلت لها:

– البت عندها ارتجاع بسيط في الصمام الميترالي، أنا قلقان.

قلت هذه الكلمات ودفعات من الدموع تخرج معها وأنا أضم "منامن "إلى صدري وأقبِّل رأسها الصغير.

وأدعو الله أن يخفف عنها ويشفيها مما هي فيه. مسحت دمعاتي وأنا أطلب الأسانسير للذهاب إلى الصيدلية المجاورة لشراء دوائها ولسان حالي يدعو لها بالشفاء ويقول: "قدَّر ولطَف، قدَّر ولطَف"..

12 مارس 2017

شبح ممدوح

الساعة الثانية صباحًا، البرد في الخارج قارس له قبضة حديدية على كل شيء، القطط تنكمش على نفسها ملتصقة بأبواب المحلات لعلها تجد بقايا دفء النهار عالقًا بأبواب المحل أو جدرانه في وقتٍ عَزَّ أن تجد فيه مَخرجًا من هذه السيطرة الكاملة لعملاق الليل: البرد.

فجأة تنامت إلى مسامعي أصوات مزلاج باب البيت، أصوات حادة عالية كأنها زمجرة دبابة منطلقة إلى العدو تنفث فيه سمها وتقتل ما تريد دونما تريث أو انتظار.

أنظر من شباك حجرتي لأجدها في جلبابها الأسود تسير ناحية مخرج الحارة ومنها إلى شارع يسري عبد التواب المؤدي إلى شارع عتمان العريض الواسع الساكن في هذه الساعة كأنه بحيرة آسنة.

يلوح على ناصية شارع يسري عبد التواب محل الجزارة الشهير، يعمل فيه "ممدوح" شاب ربعه في الجسم، حينما يضحك تجد سنًّا ذهبية في فمه يخدم كل شخص، الكبير والصغير، كان لايغضب إلا لمصلحة الحارة أو الشارع الذي يقطنه. الكل يناديه باسم "دوحه" يحبه الأطفال الصغار قبل الرجال وتعطف عليه السيدات المسنات قبل الفتيات لأدبه الجم.

جاء ذلك اليوم الذي سمعنا فيه بالجلبة، كالثعبان الضخم الذي يأخذ بخناق المكان ويتلوى في عنادٍ غريبٍ، لقد كهربت ثلاجة اللحمة في محل الجزارة "ممدوح " وهو يقوم بتنظيفها وصعقته، كانت ليلة ليلاء غاب عن سمائها القمرُ وحلَّ الظلام في أعين الجميع من كثرة البكاء. زوجته كلما خمد أوار الحزن عليه صرخت فتتجدد النار في هشيم الحزن ثانيةً أكبر مما كانت.

لم أكد أري أمي تخطو خارج الحارة حتى جريت إلى ملابسي وارتديتها وعدوت إلى الشارع كطائرحلَّق من توه في سماء عالمه. حينما وصلت قدماي إلى محل الجزارة حيث ثلاجة اللحم، أسرعتُ من خطواتي وأنا أطرد من خاطري أيَّة فكرة مرعبة أو إحساس بالخوف وكذلك أُبعد عن خاطري ذكرى ذلك اليوم المشئوم.

عدوت إلى أمي هناك وأنا أعرف مكانها هناك بالقرب من مخبز العيش البلدي؛ حيث لا أحد هناك سوى صفير هواء الشتاء، سألتها بلهفة عن سبب خروجها في هذا الوقت، وعلمت أنها تظن أن الساعة الخامسة صباحًا، فوجدتني آخذها من يدها ووخزات الهواء تلدغ جسدي في

صراخٍ لا يرحم وكأنها تعاقبني على تعكير جو المساء والخروج في هذه الساعة.

رجعنا إلى المنزل لأجدها تنتفض وهي تحكي لي حكاية شبح "ممدوح" الذي شاهدته في محل الجزارة حال عبورها عليه، وقد أعطاها ظهره. أخذت أقرأ الفاتحة والمعوذتين وأنا أمسح بيدي على رأسها ثم أعددت لها كوبًا من الشاي الدافئ وأنا أدخلها في موضوعات أخرى خارج تلك الحادثة التي شاهدتها وهزتها، وأنا أقول في نفسي:

- يا ترى ماذا سيكون حالي إذا شاهدت شبح "ممدوح" ماثلاً أمامي؟

طردت هذه الفكرة من رأسي وأنا ألف أمي بغطائها وأزيد عليه حتى تسترد الدفء المنشود الذي يجرجر النوم بأحلامه وراحته وأنا أسمع دعاءها لي بكل خير في الدنيا والآخرة وأقول في سري: آمين آمين آمين..

أبريل 2017

وفاة ثريا

الصرخات تنطلق من منزل الحاج "رزق الله"، المنزل ضخم ذو بوَّابةٍ حديديَّةٍ عاليةٍ تسمح بدخول جملٍ ضخمٍ بأحماله كما يقولون. لقد كان هذا المنزل مضرب الأمثال في الجود والكرم. حوائطه الخارجية من الحجر الجيري، تلوح أعلى البوابة نقوش قديمة لطيور وحيوانات مختلفة كانت محط خيالي وأنا صغير، كنتُ دائمًا أحاول أن أُحادِثَها في أحلامي وأتكلم معها؛ فلقد شكلت لبنات طفولتي وبراءة أيامي. الصرخات الخارجة من جوف المنزل تأتي من حجرات الحاج "محمد رزق الله" الذي يعمل في شركة الأدوية القريبة من منزلنا والذي أصيب بطَلْقٍ ناري في إحدى ركبتيه في مظاهرات 1977 بالقاهرة خلفت به عرجًا خفيفًا يبدو واضحًا لمن يدقق النظر في مشيته.

الأصوات تزلزل شارع يسري عبد التواب العريض الترابي وتتسرب

إلى أعماق حارة المرزوقي المتقاطع معه كأنها ثعبان الأناكوندا الضخم الذي يتلوى لالتقاط ضحاياه ولا يرحمهم طرفة عين، أفتح شباك الدور الثالث من منزلنا في أول الحارة وأنظر لأجد أمي وأختي تهرعان إلى منزل الحاج "رزق الله" وتدخلان مع الداخلين والداخلات.

لحظات ترقُّب وقلق ألمحها في وجوه من يخرج من المنزل، تمر الدقائق كأنها عُمر انقضى منذ بدء الخليقة وحتى يومنا هذا. يلوح الحاج "محمد رزق الله "من على الباب وهو يحمل شابة على كتفيه وقد تدلى من فمها خرطوم من الإفرازات والسيارة التي تقف أمام باب المنزل الكبير يصرخ مُحرِّكها مع الأصوات التي تتلاطم كأنها أمواج البحر الذي لا يتوقف عن الحراك كأنه غضبان من الشاطئ الذي يخنق جنبيه.

تجمُّع النساء حول "أم ثريا" لا ينفك في الاستمرار وكلهن يطبطبن على كتفها ويواسونها وهي على صرخة واحدة:

- بنتي يا ناس.. بنتي ضاعت منِّي.

هنا استبان الأمر لي، وفجأة أخرجتني الدقات على باب شقتي لأجد أختي تدلف إلى الداخل وهي تقول:

- "ثريا" شربت البوتاس "الصودا الكاوية التي تستخدم في إزالة بقع الملابس في الغسيل ".. شكلها ضايع خالص.. ربنا يستر عليها.

لم أكد أمسك نفسي من هول الصدمة لأجلس على أقرب كرسي وأقول:

- إزاي ده حصل؟

ترد أختي وهي تقلب كفيها في عدم علم:

- دا اللي احنا سمعناه..

تكهرب الجو أكثر وخطوط الأصوات في الشارع تغلي كأنها مرجل بخاري قارب على الانفجار من هول الضغط الكامن فيه. مرت ساعتان أو ثلاث أخرى لا أدري وإذا بزلزال الشارع ينفجر لقد عادت "ثريا" محمولة على الأكتاف بعد أن فارقت الحياة ولم يعد هناك أمل في إنقاذها. ماتت "ثريا" أطيب من أنجب الحاج "محمد رزق الله" ماتت شابة في الخامسة عشر من عمرها كانت لا تتكلم عن أحدٍ إلا بالخير. وجدتني أتذكرها وهي تطلب منِّي شرحَ قاعدة عصية عليها من قواعد اللغة الإنجليزية أمام أختي، قضيت ساعتين بالتمام أراجع لها القواعد الأساسية وهي تتجاوب معي بدقة واقتدار ثم انتهت جلستنا فانصرفت وهي تضحك شاكرة لي معاونتي لها وتدعو لي بتمام الصحة والسعادة. لم تمر ساعتان إلا ووجدت صينية معتبرة من الحلوى أمامي بعثتها أمها وأحضرتها لي أختي وهي تضحك وتقول:

- الأجرة وصلت بسرعة يا أستاذ.. يلا شمر إيدك وكُل..

وجدتني أتذكر هذا الموقف ودمعات يتحدرن على خدي وأنا أقول في نفسي بصوتٍ يكاد يكون مسموعًا لمن هو قريب منِّي:

- الله يرحمها.. الله يرحمها..

مارس 2016

.

فادية ونفس الحلم

الساعة التاسعة مساء الكلمات تتبخر في جو المكان تلف حول أكواب الشاي الساخن، بعض الأكواب سادة والأخرى شاي بالنعناع على حسب الطلب، رائحة النعناع تمتزج بطزاجة المكان ودفء الجلسة وحلو الكلام واندفاع العواطف والانفعالات في الشرايين من جراء الاقتراب العاطفي وتمازج الفرح الخفيف في النفوس التي تجد من هذه الونسة واحة صغيرة جدًّا في هجير الحياة القاسي الذي لا يرحم حتى الفقراء ولو كانوا أطفالاً، فتذرف دموعك عليهم ولا تملك لهم شيئًا سوى الدعاء. الوجوه حمراء تشع بالحرارة والدهشة والترقب والرغبة في الانطلاق في الحديث دونما قيدٍ. إنه الود الذي يخيم على المكان كركنٍ بين الأشجار يبعث في أوصالك الخدر اللذيذ إذا ما هاجمَتْ الشمس سكون المكان وكهربته.

أخذت انبعاثات المكان في الانتشار وتملكت النفوس لأجد ابنة خالي

"فادية" تلتفت إلى وتقول في سرد هادئ لا تقطعه سوى رشفات الشاي الذي يساعد على الإنصات والإمعان في السكون والدعة:

– شفت منام غريب عدة مرات، نفس المنام وبنفس التفاصيل.

انطلقت تقص علينا حكاية منامها وكيف أنها شاهدت أن نهاية سور المنزل، منزلهم حيث تقيم مع أمها، توجد أسفل منه بوابة قديمة وعليها نقوش مختلفة لم تتبيَّن كنهها في حلمها، ولكنها تتذكر أن هذه البوابة تفضي إلى ما يشبه المعبد أو المنزل أو شيء من هذا القبيل المهم أن هذا الحلم ظل يراودها عدة مرات كالشريط السينمائي الذي يتردد في الدماغ وتجتره العينان وتعيد لقطاته في استعادة عجيبة تحاول أن تتمسك به حتى لا يطويه النسيان ويلقي به في مدافن الذاكرة.

رجعت "فادية "إلى الوراء وفي يدها مج الشاي الأخضر الذي تفضِّله وبقايا تفكير تلوح بعينيها وحكت لنا كيف أن صديقًا لزوجها معروفٌ عنه أنه يعرف في هذه الأشياء ودون أن تكون قد تكلمت مع زوجها من قبل، يأتي في أول زيارة له في المنزل ويقول له بعد نزوله عند مدخل الدار في الدور الأرضي وقد نكس رأسه في حالة تذكر أو تفكير خاطفة:

– البيت ده فيه حاجة.. أنا شايفها قدامي..

تقول بأنَّ زوجها "زين" حكى لها عن هذا المشهد وتعجَّب من موقف صديقه وردّ فعله الغريب عند مدخل الدار وتضيف بأنها في هذه اللحظة كلَّمته عن حلمها الذي رأته عدة مرات وكيف أن نفس التفاصيل

تتكرر دونما زيادة، اللهم إلا من صوتٍ كصوت سارينة الإسعاف في المرة الأخيرة لذات الحلم، الأمر الذي قبضَ صدرها وأنهضها من نومها مستغفرةً ومُستعيذةً من شَرِّ العواقب وشر القادم من الأحداث والملمات.

حكت "فادية "هذه الحكاية وأضافت عبارة هنا وعبارة هناك مما يضم لبنات بناء الحبكة في معمار محكم يزيد من تأثيرها في النفس ويجعلك تطلب المزيد من الحكي والسرد ولكن لا يوجد في الغالب المزيد.

طأطأتُ رأسي، ولكن وجدتُني أقول لها بأن هناك حادثة قرأت عنها لسعي عدة رجال للبحث عن كنز في مكان ما بالقرب من منطقة أبي الهول، ولكنهم بعد أن تعمقوا في الحفر لمسافة كبيرة ولعدم اتخاذهم احتياطات لسلامتهم انهار الردم عليهم ومات ستة أشخاص، كانت كلماتي تخترق فضاء المكان وقد سكتت رشفات شُرب الشاي والعيون مثبتة على ما أقول.

شجعني هذا على استكمال الخبر الذي قرأته منذ فترة بأن الشرطة ضبطت صاحب المنزل وقبضت عليه، وأن المنزل تم تشميعه بالشمع الأحمر، وأن النيابة العامة أمرَت بدفن الجثث لعدم وجود شُبهة جنائية، وانتهت قصة البحث عن الكنز بمأساة عاشتها المنطقة وسمعها كل من هبَّ ودبَّ.

نظرت "فادية "إليَّ ولم تتكلم بل نظرت إلى الأرض وهي تدرك ما أرمي إليه وما ألمح إليه قاصدًا زوجها "زين" الطماع الذي يبيع ابنه من أجل المال أو شبهة وجوده.

صمتت وهي تقول:

– كنز إيه وبتاع إيه، دا البيت حيطانه تعبانة وفيها شروخ، وكفاية ساترنا.

شربت "فادية "الشاي الأخضر وظلال غباء "زين" في رأسي لم تفارقني لحظة وأنا ألملم أوراق العمل التي فرشت صالة شقتي الكائنة في حارة الدسوقي وسيجارة ما قبل النوم تلح عليَّ أن أوقدها لأستريح ولأهضم كلمات "فادية" وما قالته عن حُلمها العجيب الذي تكرر بنفس الأسلوب.

أخذتني دوامات التفكير إلى ذكرياتٍ وحكايات والدي عن الكنوز وكيف أن لكل كنزَ "رصد" أي حارس من الجن وأن من ليس له نصيب يتعرض له الرصد ويؤذيه؛ فمنهم من يفقد البصر، ومنهم من يفقد السمع، ومنهم من تُصيبه لوثةٌ عقلية ومنهم من يصيبه العجز فيظل قعيدًا طوال حياته، وجدتُني أتعوَّذُ في داخلي من هذه المشاهد التي أقلقَت قلبي وأنا أردد بصوت أكاد أسمعه:

– وبعدين يا فادية في القلق ده..

22 فبراير 2016

عودة أمي

أدرت المفتاح المعدني في الباب الحديدي الصدئ. الساعة الخامسة بعد الظهر ميعاد عودتي الطويلة من عملي في المعادي في إحدى الشركات العقارية هناك. العمل كتلة من الحجر الجرانيتية على النَّفس والرُّوح والجسد، كما أن تعامل رب العمل وصاحب العمارات صعبٌ، يصل أحيانًا إلى حد السماجة والإيلام في اللسع بالكلمات، ولكن "أكل العيش مُرّ" كما يقولون. أعدو بعد دخولي إلى المنزل إلى الدور الثالث كأنني طائرٌ أخضر صغير حلو المنظر في جنانٍ وارفة الظلال تجري تحتها عيون الماء. أدخل إلى شقتي لأجدها خاوية، اللهم إلا من صوت الهاتف الأرضي الذي يكاد يجن من الرنين، بل إن الجدران والستائر والشبابيك تكاد تصرخ من وخزات رناته، مددت يدي بسرعة لإسكاته ولأرد في اقتضابٍ على المتصل الذي لا أعرفه، وفي شبه نرفزة:

- النمرة غلط..

انتابني الضيق وهبطت درجات السلم إلى الدور الثاني لعلي ألقى أخي الأكبر "فهيم" ولأسلِّم عليه وأعرف الأحوال. وجدت باب الشقة -شقة أمي، والتي يقطن فيها أخي بمفرده الآن- مواربًا، ولأجد أمي هناك كما كانت تجلس على السرير في حلة من النور الفضي الجميل الذي يلفها كأنها ملاكٌ نراه عيانًا. الوجه كالقمر ليلةَ البدر، أصابعها الصغيرة وكفها الرقيقة تُشع بالنور وكذلك ابتسامتها كأنها ضياء الشمس الساطع في مقتبل اليوم، والذي تحب أن تجلس فيه. وجدتها هناك ترنو إليها بعينيها اللتين أتذكرهما جيدًا وتمد يديها بحبات العنب الذي أحبه، حبات خضراء يانعة كأنها حبات اللؤلؤ المضيء الرائق. أكلت ثلاثَ عنبات وتوقفت وأنا أنظر إلى وجه أمي المستدير المضيء لأشبع من رؤيته وأقول لها:

- واحشاني ماما.. واحشاني خالص..

الدموع تملأ عيني، ولكنها بكفها المشعة بالنور تمسح رأسي لأستشعر خيوط الراحة تدب في أوصالي وفي أنحاء جسدي. أسمع تمتمتها بالدعوات لي وبالنجاح والتوفيق في الدنيا والآخرة كما كانت تفعل من قبل. البخور الكثيف يغطي حجرتها ويتغلغل في كل شيء. المسبحة الزرقاء خاصتها ترقد في حجرها وكأنها قطعة من الأحجار الثمينة. التطقت عيناي زجاجة ماء زرقاء اللون توجد إلى جوارها مملوءة بالأسماك الفسفورية اللون الصغيرة والحلوة مثل وجهها المضيء. أنظر إلى الأسماك ووجها وأبكي وأنا أردد في بكاء يكاد أن يكون شهقة:

– واحشاني ماما.. واحشاني كتير.

هنا فقط مِلت على يدها وقبَّلتُها وأنا أبكي غَيرَ مصدقٍ أن هذه أمي عادت إليَّ. كانت تنظر إليَّ فقط وتمسح على رأسي بيدها الطرية وهي تبتسم. أنتفض فجأة من مكاني لأجد عينيَّ مفتوحتين على ظُلمةٍ حالكةٍ في المكان الذي أرقد فيه وكأن هناك ستارة سوداء خانقة تلفني. صرخات ابنتي "إيمان" تلسعني وتستحثني لأنهض لإشعال المصباح الكهربائي الصغير. أنهض ولا يزال طعم حبات العنب في حلقي بمذاقٍ لم أرَ مثله من قبل في حياتي. فجأةً وجدت لساني يلهج بالدعاء لاستكمال الرؤية التي كنت فيها وللدخول إلى عالم الأحلام ثانية، ولأسمع صوت أمي وأراها ولأستعيد هذه الإحساسات الجميلة وتلك اللحظات النورانية ثانية قبل أن تضيع.

8 مارس 2016

رحيل "أم فهيم"

الساعة الرابعة عصرًا، الحارة مكتظة عن آخرها بالناس، الأقارب، الجيران، زملاء العمل، الجيران في محل السكن السابق، البائعون في السوق، تجار المحلات، حتى البائعون السريحة، الكل في الحارة عند مداخل البيوت وعلى الأرصفة من كل صنف ولون. السيدات احتللن آخر الحارة في كتلة سوداء كأنها الموت نفسه، يزيد من انقباضها صراخهن وعويلهن ونواحهن العالي كالغربان التي لا تبشر إلا بنذر الشر وهطول غيومه ولسع أفاعيه.

المنزل ذو الطلاء الأصفر بأدواره الأربعة صغيرٌ في مدخله كحجر الفئران يخرج منه المعزون في تدافعٍ غريبٍ كأنهم يخرجون من خندق مكثوا فيه طويلاً، وجهوهم حمراء كأن الدم يتفصد منها، لا تسمع منهم إلا الحوقلة وسبحان الله واللهم ارحم.

بدأ الغسل، الحركات غير عادية، صامتة، ميكانيكية، تموج في الدور الثاني، البنات يشمرن عن أيديهن.. إنها صاحبة المحلات الكبيرة في مجال تجارة ملابس الأطفال، صوتها العالي وطيبتها كانا يملآن شارع الطالبية. سخاء ذات اليد سمة من سماتها، فضَّلت العطاء لمن حولها عن تكرار العمرة أو الحج، كانت تقول بأن العطاء للفقير كنزٌ لا يفنى.

وجهها لم تؤثر فيه السنوات الستون إلا قليلاً. تضحك وتحتد، ولكنها كانت تقود السوق وغيلانه. لم يُسمَع منها أي لفظ خارج أو كلام بذيء، كانت إذا احتدت أو تألمت لموقف دائمًا تردد في نفسها وصوت هادئ:

- حسبي الله ونعم الوكيل.

لم تترك منزل أبويها بل أكملت أدواره وعاشت فيه وكانت تردد دائمًا وهي تتنهد في كلام يشبه الصمت:

- دا من ريحة الحبايب، إزاي أسيب حتة مني..

اشترت عدة منازل وشققًا أخرى في الحارات والشوارع القريبة، كانوا يلقبونها بـ "أم فهيم" في الذهاب والعودة وفي الدخول والخروج، وكثيرًا كانوا يختصرون حضورها في كلمة "الست". رغم تعليمها المتوسط كانت حادة الذكاء تلخص أي صفقة في كلمات قليلة وتنهيها وأموالها حاضرة بعد أن يدرسها مساعدوها.

كان أبناؤها يحسدون عليها ذكاءها وكانت تدير لهم شئونهم حتى تخرَّجوا من الجامعة. في السنوات الأخيرة أصابها مرض السكر الوبيل

فنغص عليها يومها وليلها وتكالب معه داء الضغط وكان الوضوء هو سبيلها لتخفيف ما هي فيه.

ترددت على الأطباء كثيرًا في السنة الأخيرة وتعبت حتى أسلمت روحها إلى بارئها بعد أن تناولت فطورها الذي أعددته لها زوجة ابنها، لم تصرخ من ألم الموت ولم تتوجع، بل ارتمت على ظهرها على السرير ولفظت أنفاسها وظلَّ كدر الموت على وجهها الشاحب. كرب الموت بادٍ على تقاسيم وجهها الهادئ، والصفرة تعلو الوجه والسرير والحيطان بل وتخرج مع الأنفاس. الدعوات بالرحمة تتردد كطنين النحل في المكان والمنطقة.

تحركت الجنازة إلى مقابر أبي الهول يحوطها النشيج والعويل والبكاء. لم يرَ رجالُ المنطقة يبكون على أحد مثل هذا اليوم .حيث كانت لا تترك أحدًا فلم ترد طالبًا ولم تحرج أحدًا ولم تترك معوزًا.

حين دخلت القبر ارتج المكان بالعويل وكأنهم يريدون أن يرجعوا بها. حل عليها في قبرها ابنُها الأوسط، نزل القبر معها وسدها التراب وأسندها إلى حائط يتوسط القبر. مسح بيديه على وجهها المغطى وهو يودعها آخر مرة في حياته ويقول لها بأناملة مع السلامة يا أعز الناس، عند خروجه من القبر تحسس قدمها الصغيرة وهي تحت الكفن الأبيض، تلك القدم الصغيرة والتي كم داعبها على صغرها.

دُفِنَت "أم فهيم "ووسِّدت التراب، كان الصمت يخيم على كل شيء، لم تسمع صراعات ما بعد الموت، فلقد أعدت كل شيء مع محاميها وتم توزيع الميراث بكل يسر وسهولة.

اليوم وبعد خمس سنوات من وفاتها، لا يزال مقرئ يوم الجمعة يأتي إلى منزلها لقراءة القرآن على روحها الطاهرة، ولا تزال ذكرى "أم فهيم" رمزًا في الصدور والقلوب هناك في شارع فخري عبد الرحمن بإحدى مناطق الطالبية بالجيزة، ولا يزال الموت بعد رحليها يخطف مَن كانوا حولها كالأسد الرابض يخطف فريسته حينما يأتي دورها وهو لا يشبع أبدًا.

أبريل 2017

صرخات "عم عتمان"

كانت الصرخات عالية؛ فمَن على رأس الحارة كان يمكنه سماعها كمن في آخرها. صرخات "عم عتمان" لم نَدرِ سببها هل هو عراكه اليومي مع أولاده الشباب الذين تطاولوا عليه وشجوا رأسه بقصدٍ أم بدونه.. لا ندري.. ولكن المؤكد هو أنهم دفعوه معهم في حمية عراكهم من على درجات السلم فسقط لترتطم رأسه بالجدار القاسي في أدناها وينزل الدم حارًا ومعه صرخات "عم عتمان "المكتومة وتكوُّمه على نفسه وكأنه بحركات جسده هذه يحاول أن يخفف من آثار ما يحسه من ألمٍ شديدٍ.

لقد أقسم أبي وباقي رجال الحارة بأنه لا بُدَّ من معاقبة أولاد "عم عتمان" على جريرتهم تلك في أبيهم وأمام الشباب الناشئ: الصغير والكبير في الحارة ليروا عقاب التطاول وقلة الأدب على من هم أكبر منهم فما بالك بالأب رمز التضحية والتعب والكد.

تم القبض على أولاد "عم عتمان" في الفجر وسيقوا إلى ساحة الحارة

هناك في منتصفها وطرقعات الأيدي تتسابق إلى خدودهم وأجسادهم، "عم لطفي" بائع الأعلاف والذي له محل عريض في الشارع المتسع والذي تفضي إليه حارتنا في يده كرباج أسود له صوتٌ عالٍ يخترق الهواء الذي يصرخ من مجرد مروره السريع فيه.

تم تكبيل أيدي أولاد "عم عتمان "الثلاثة خلف ظهورهم وهم لا يبالون بما يحدث لهم في تبجُّحٍ غريبٍ وعجيبٍ، ولكن لم يكد الكرباج ينطلق عاليًا في سماء الحارة إلا ورأيناهم يحاولون اللواذ ببعضهم البعض، ولكن هيهات لهم هذا فقد تم اتخاذ القرار، ولا بُدَّ من العقاب البدني والعلني لهم، وكانت واقعة تغنَّى بها شيوخ الحارة من رجالها ومن نسائها إلا زوجة "عم عتمان" والتي كانت تشيح بوجهها كلما حادثها أحدهم عن هذه الواقعة التي تسجلت في ذاكرة الحارة وسكانها. لم يتوقف "عم لطفي" عن ضربهم إلا عندما سمع توسل "عم عتمان "من شباك منزله في الدور الثاني وهو يصرخ:

– كفاية عليهم كده يا لطفي.

لم يقترب منهم أحدٌ إلا "عم رضا "التمورجي (الممرض) في المستوصف القريب، حيث تفقد جروحهم وكان معه اللازم لمداوتها. لم ترَ الحارة وجوههم لمدة شهرٍ كاملٍ، فقد كانوا يخرجون في غبشة أول النهار ويعودون في عتمة الليل وظلامه خوفًا من أعين الناس التي كانت تخترقهم كطعنات السيوف.

مرت الأيام وتعاقَب على الشهر الشهران وإذا بـ "عم عتمان" يعود

إلى حالته التي كان عليها وابتسامته تعلو وجهه ولكن زالت عنها البراءة التي كانت تزينها ليحل مكانها ألمٌ دفينٌ خلف عينين متعبتين مرهقتين زائغتين أحيانًا ومستسلمتين في أحيانٍ أخرى.

الأم هي الأخرى صمتت ولم نسمع لها صوتًا بعد أن تأدب أولادها الثلاثة على مرأى من الجميع ومن الكل؛ شباب وشابات وصبية وأطفال.

بعد ستة أشهر بالتمام، حدث أن جاءت صرخات في جوف الليل من منزل "عم عتمان"، الزمن شهر يناير، حيث الكل يكمش في مكانه بعد صلاة العشاء ملتمسًا الدفء بين أفراد أسرته ومن أحاديثهم وودِّهم معه وحنانهم عليه، كانت صرخات "عم عتمان" والذي يعمل على عربة كارو لنقل البضائع لمعلِّمي سوق الخضار حادةً كأنها المشرط في القلب.

اندفع رجال الحارة إلى جوف منزل "عم عتمان" للاستكشاف وتحري الأمر، وبخاصة وأن رأسه قد شُفيتْ فقط من عهدٍ قريبٍ، اندفعوا ليروه ممسكًا ببطنه وهو يصرخ، فما كان من الرجال إلا أن تباروا بوصفات للعلاج، وإذا بصوتٍ من بينهم عالٍ وحادٍ يقول:

– على المستشفى يا جماعة على المستشفي، إحنا مش عارفين السبب وماعندناش الدوا.

انطلقت الأقدام تهرول إلى الخارج وفجأة تحركت سيارة "عم شوقي" لتأخذ "عم عتمان" وخمسةً من رجال الحارة إلى المستشفى القريب.

مرت الساعات ثقيلة وطويلة، لنجد أن الركب يعود دون "عم

عتمان" ولكن تصحبهم عربات الشرطة التي سدت فوهة الحارة ورجالها يقتحمون منزل "عم عتمان" ويأخذون الشباب الثلاثة وأمهم مكبلين في الأغلال.

كانت رأسي تموج بالعديد من الأسئلة وتكاد تنفجر، كيف مات عم "عتمان"؟ هل مات مسمومًا ومَن سمه؟ أم مات مِن أكل شيءٍ مشمومٍ "أي بثَّ فيه ثعبانٌ سمَّه"؟ أم أن زوجته "الغراب" -كما كنا نناديها- هي التي وضعت له السم في طعامه؟ أم أن أولاده هم من فعلوا ذلك به؟

أغلقت البريد الإلكتروني وأنا أسمع كلمات أمي وهي تناديني لتناول طعام الغداء والذهاب مع ابن خالي "عثمان" إلى طبيب القلب للفحص والمتابعة شفاه الله وعافاه. لا تزال صورة "عم عتمان" وتألمه يملآن حواسي وأنا أسأل نفسي: هل الإنسان يقسو على مَن هم حوله إلى هذه الدرجة؟ وأي سبب يبرر هذه القسوة؟ كان هذا واحدًا من ضمن عدة أسئلة ترددت في داخلي بلا إجابة.

نوفمبر 2015

حنين كتلة الخشب

تجاوز الستين بسنتين أو ثلاثة، لا أدري. دائمًا تراه في الشرفة المواجِهة لشبَّاكنا في الدور الثاني. الشُّرفَة التي يجلس فيها ذاتُ طلاء أصفر باهتٍ، أحالته الشمس إلى لونٍ آخر غير اللون الأصفر. يجلس كالملك المتوج على عرشه بهالة شعره البيضاء وخطوط الزمن التي لم تتكاثر عليه بعد. كرسيه الخيرزاني هو مكانه المفضَّل تعلوه الشلتة "كيس من القماش، محشي ومنجد يوضع على الكرسي ومسنده"، يحتسي الشاي بتؤدة وهو يصغى إلى صوت إذاعة القرآن الكريم الذي لا تتبينه من زحمة أصوات الحارة "حارة المرزوقي". ضياء النهار غلالة كثيفة تضفي على "عم فوزي" وعالمه مذاقًا خاصًا جعلتني أتودَّد إليه وأجالسه في صباحِ يوم الجمعة والسبت من كل أسبوع. نادرًا ماكان يقرأ، فقط أراهُ يُمارس هوايتَه المفضلة بإزميل صغيرٍ وشاكوش لا تكاد تراه وهو يرسم بالنحت

زخارفَ جميلةً ناتئة وغائرة على القطعة الخشبية التي تراها راقدة أمامه. لقد هجر عمله الذي كان يمارسه لمدة خمسين عامًا في مجال النحت على الخشب وعملِ الزخارف لزوم استخدامها في ديكورات ومناح كثيرة. منذ عامٍ بالتمام أصابته نوبة قلبية خفيفة كانت حديث أهل الحارة وتدفق على حجرته المتصلة بالشرفة العشرات من رجال "الحتة" في مثل سنه يضحكون معه ويتكلمون وهم لا يتمنون أن يصيبهم ما أصابه وإن كانوا غير متأكدين من ذلك. كل ألمٍ يلم بأحدهم يَحسون به كثعبانٍ أسود خائن يلدغ ثم يهرب فلا تراه حينما يحضر بل ترى آثاره ولا تستطيع الانتقام منه. عاد "عم فوزي" إلى حالته التي كان عليها من قبل بالتدريج، حيث مكانه الصباحي المعتاد وسماعه لإذاعة القرآن الكريم ونحته على كتلة الخشب التي تجلس أمامه. كنا نسمع صراخ ابنه "سامح" فيه لأخذ الدواء الذي ينساه ولا يتذكر مواعيده.

مرت الأيام كما كانت، خطوات لعجلات قطار تدق وتلف وتنحر الطريق والقضبان، ولا تتوقف إلا لتعاود سيرتها الأولى. ذات صباح -وكان أول جمعة بعد انقضاء شهر رمضان-، رأينا "عم فوزي" منكفئًا على الكتلة الخشبية أمامه وكأنه يفحصها. لم نقلق لأننا نراه دائمًا يطأطئ الرأس كثيرًا ليرى آثار عمل يديه، ولكننا وجدنا انحناء جسمه غريبًا ويثير الريبة في النفس، ناديناه بصوت عالٍ:

- "عم فوزي.. "عم فوزي"

لم نجد ردًّا ووجدنا وحش القلق ينشب أظفاره في داخلنا كأسدٍ

هصور أنشب أنيابه ومخالبه في فريسته التي تعاين النهاية أمام مقلتيها وتودِّع الحياة بلا رجعة. طار صراخنا كطائر قلق إلى مسامع "أم عماد" زوجة ابنه القصيرة العايقة والتي كانت تضحك بإنفلات أحيانًا. جاءت وصرخت في "عم فوزي" وكأنها تؤنِّبه ولكن لا مجيب. فجأة انطلق صراخها لتنقلب الدنيا رأسًا على عقب. العزاء ثقيل كأنه جلاميد صخر نهر النيل بأسوان والتي لم تتحرك منذ أيام الفراعنة حتى يومنا هذا. بكى رجال الحارة عليه كما لم يبكوا من قَبل. مرت الأيام كما نراها تترى والكتلة الخشبية التي كان يحتضنها "عم فوزي" لا تزال هناك تعاين النهار بضوئه وحرارته وتُباشر الليل برطوبته ونداوته. رأيتها كثيرًا وتأملتُها وكأنني بها تصرخ فينا وتنادينا بقلبٍ مُحطَّمٍ ومنكسرٍ عن ميعاد عودة "عم فوزي" صديقها الذي كان يصاحبها في ساعات يومه ويؤثرها بقربه وحدبه.

9 مارس 2016

أصوات من الماضي

أدق على باب منزلي نفس الدقات الثلاث التي أدقها كل ليلة حال عودتي من عملي في المعادي، طريق طويل أقطعه على مضض يملؤني الرجاء في إتمامه في الذهاب والعودة بسلامٍ، وبخاصة في حال غضب الشتاء ورعده وسيطرة الصيف وحره. أدقٍ على ذات المكان المفضل لي الدق عليه من الباب مكانًا استحال لونه إلى اللون الرمادي وظهر صاج الباب قاتمًا. طار من عمق الصالة صوت زوجتي تؤكد قدومها لفتح الباب. انفتح الباب وإذ بي أسمع مع صوت صريره المعهود غمغمةً غريبةً كأنها رطان لغة أجنبية أقرب إلى اللغات القديمة كاللاتينية أو اليونانية التي كنت أسمعها دونَ أن أعي كلمةً واحدةً منها على اليوتيوب. قلتُ في نفسي: لا بُدَّ أنها هلوسات من رأسي الذي أرهقه عمل عشر ساعات متواصلة وصراخي مع من معي لتلبية احتياجات الزبائن زاد على ذلك

جلسات الصلح اليومية التي أعقدها لحل السخافات والمناوشات التي تحدث فيما بين من يعملون تحت إشرافي. دبيب العمل ثقيل وأسود وكئيب فوق أكتافي.

خطوت داخل المنزل وإذا بهمهمات أخرى لصوت بشري تعود إلى أذني، عاليةً هذه المرة، ولكنها أوضح من سابقتها، العبارات هنا واضحة واللغة كذلك، إنها اللغة الإيطالية، عبارات عالية النبرة كأنها صوت موسوليني وهو يصرخ في جماهيره الغفيرة وهم يردون على صراخه وعباراته الحماسية بكل انفعال. هززت رأسي وكأنني أنفض عن نفسي هذه الهمهمات وأنا أنحني لخلع حذائي وإذا بزوجتي تسألني بصوتٍ خافتٍ وهي تقترب بأنفاسها من وجهي:

– فيه حاجة يا حسين؟

رددت باقتضاب:

–مفيش..

لم أكد أخطو بقدمي داخل غرفة النوم حتى تعالت الأصوات باللغة الألمانية التي أعرف منها كلمات قلائل، وإذا بالصوت هنا صوت "هتلر" ومعه أصوات مَن يتجاوبون معه من جماهير خُطَبه الشهيرة. دققت السمع لأجد الأصوات تخرج من ناحية مجموعة من الكتب على منضدة صغيرة في حجرة النوم ووجدت عليها الكتاب الذي اشتريته عن ألمانيا النازية مفتوحًا على صورة ملونة للزعيم النازي أدولف هتلر وهو يلوح بذراعه

كلها تحية الرايخ الثالث الألماني.. لم أكد أنظر إلى صفحات الكتاب حتى وجدت صوت هتلر يعود حادًا ثانيةً تركت الكتاب فسقط على الأرض وهنا صمت صوت الزعيم النازي في مسمعي.

بمجرد أن فتحت باب الدولاب لتناول ملابسي إلا والتقطت أذناي أحلى تسابيح وموشحات يمكن أن يسمعها أحدٌ، تسابيح حلوة بصوت متهدج وكان بها مسحة من البكاء ودعوات إلى الله حارة وجميلة. وقفت لمدة خمس دقائق كاملة أسمع وقلبي يتجاوب مع ما أسمعه، وإذا بصوت الأواني من المطبخ يغطي على هذا الصوت وتلتفت عيناي لتري مجموعة الكتب الصغيرة المتراصة بالرف الأول من الدولاب وتتحدث عن التسابيح والصلوات على النبي صلي الله عليه وسلم.

الإشارات في عقلي عالية، إن كل صوت ولغة يرتبط بخيط على أرض الواقع المحيط بي. هنا بدأت تتضح الصورة لي قليلاً. بدأت أرتدي منامتي وإذ بي أسمع صوت الزعيم الراحل جمال عبد الناصر وهو يصرخ في صوتٍ منكسرٍ عن أسباب النكسة التي حلَّت بالوطن وعن القوى التي تكيد لمصر والوطن العربي، وجدت كلمته "أيها المواطنون" تخترق جدران الحجرة، تذكرت فكرة الرابط ولكنني لم ألحظ كتابًا عن الزعيم جمال ولكن بتدقيق النظر لمحت مقالة بالإنجليزية معلقة على الحائط -حيث أجلس- تتناول النكسة وسقوط الأقنعة ومطامع الغرب في مصر لكاتب عربي. حقيقة لقد ارتعدَتْ فرائسي وبدأ التعرق يأخذ طريقه إلى جبهتي في اضطرابٍ بالغٍ.

تعرقلت في السجادة لأسمع صوت الزعيم الخالد أنور السادات وتصفيق حاد يملأ مكانًا ما وهو يقول "جئت هنا على قدمين ثابتتين" ساعتها أدركت أنه خطاب الكنيست الإسرائيلي في السبعينيات، وهنا وجدت ورقة صغيرة كتبت عليها بخط يدي: "خطاب السادات بالكنيست الإسرائيلي وبذور السلام الشامل بالمنطقة".

حقيقة لقد دارت رأسي حيث صوت موسوليني مع صوت جمال عبد الناصر، مع صوت السادات، مع صوت هتلر وهو يصرخ "رجل واحد شعب واحد رايخ واحد" مع دقات الحِلل والأطباق بالمطبخ رنين رنين رنين دقات دقات دقات أرتج لأفتح عيني على هزات زوجتي لي في كتفي أن أنهض لحلول موعد الذهاب للعمل وتناول طعام الإفطار على عجل.

كنت شاردًا طوال اليوم في عملي، أفكر ماذا سيحدث إذا عادت أصوات مَن ماتوا لتتردد في حياتنا وحولنا وتلح علينا في سيال من الأصوات والهمهمات والضحكات بل والصرخات التي تملأ صناديق أدمغتنا وتعكر صفو أيامنا، بالتأكيد إننا لن نعيش في سلام ولن نذوق طعم الراحة أبدًا.

فبراير 2016

فتاةٌ من عالم الجن

الساعة الرابعة عصرًا، لا تزال شمس الظهيرة تلهب جدران المنزل الرابض في حارة المرزوقي كالأسد العجوز الذي شاخ وهرم وسقطت بعض أسنانه أو معظمها. يأخذ جو العصاري في الزحف التدريجي على المكان بعد معاناة ساعات الظهيرة كأنه يَدُ شبحٍ عملاقٍ يلف المكان كلَّه ويحاول حمايته من اللهيب الذي لا تزال آثاره عالقة في السماء.

خطواتي داخل الشقة محدودة، زوجي في عمله في المعادي، يخرج مع بواكير الصباح ويعود بعد أن يزحف الظلام بردائه على المكان وتنام العصافير. ذات الحجرة هناك رابضة في غموض، إنها غرفة النوم بشقتي في الدور الثالث في منزل عائلة زوجي، الغرفة محط كوابيسي وفزعي وأحلامي الخانقة. فيها أرى ذات الحلم يتكرر، نفس اليد السوداء الناعمة، ذات الشعر على بطني أو جسدي، نفس التوتر الكهربي الذي

يرجني رجًّا فأنهض فزعة. نفس الغوص في أعماق البئر ذي المياه السوداء والأيادي التي تتلقفني إلى أعماق سحيقة.

في حجرة النوم يربض كئيبًا دولاب النوم، جزء من كوابيسي بالمساحة التي يتركها هناك بينه وبين الحائط مساحة نضع فيها الأشياء ويأتي منها جو رطب عجيب رغم أن الحجرة ليس بها شباك في هذه الناحية.

في هذه الساعة أنا بمفردي، أجلس على أرض الحجرة المواجهة لحجرة النوم والمطلة على حارة المرزوقي، فالشقة كلها عبارة عن حجرتين وصالة صغيرة وحمَّام صغير ومطبخ متوسط الحجم. صخب الأطفال في الشارع آخذٌ في الازدياد مع قدوم جو العصاري ورش الماء في الحارة وبدء النسيم الخفيف في الطواف في سماء المكان. أصوات الكاسيت لا تتوقف في المحل الكائن على رأس الحارة وكأنه يأبى للراحة أن تعشش في المكان للحظات.

ابني "سلام" جالس إلى جواري وفجأةً لاح أمامي ظِل صغير، ثم رأيتها هناك ماثلة بشحمها ولحمها وهي تمر أمامي عابرة الصالة الصغيرة من المطبخ ومتوجهة إلى حجرة النوم، إنها فتاة عادية في ملبس عادي كالفتيات التي أراها في السوق، لم أرها في حياتي، ولا توجد هنا في المنزل وكل أبوابه مغلقة. توقَّف تفكيري للحظات من هول الموقف وتعاملت مع تفصيلات الموقف كأنه واقع. نظرت إليَّ قبل أن تدلف إلى حجرة النوم وتختفي هناك بجلبابها المشجر في المنطقة الكائنة بين الدولاب والحائط، حيث مكمن خوفي وقلقي.

لا أخفي عليكم أن هذا المشهد ألجمني وظللت لفترة من الزمن أقلب الأمر، هل ما أشاهده علم أم حلم؟ ولولا وجود ابني "سلام" إلى جواري لشككت في قواي العقلية. بعد فترة من الزمن، نهضت وكأن جسدي كتلة من الرمال لأفتح نور الحجرة التي أنا فيها وعيناي تنظران إلى ذلك المكان القصي بين الدولاب والحائط لعل الفتاة تعود منه ثانية.

اقشعر جسدي وشعرت بشعر رأسي واقفًا كشوك القنفذ. لم أجد نفسي إلا وأنا أهرول إلى الدور الثاني حيث توجد حماتي "أم فهيم" ونبضات قلبي تكشف خوفي وعلى صدري ابني "سلام" ولساني يلهج بقراءة المعوذتين طلبًا للراحة والتخفيف من آثار الموقف الذي أنا فيه. دخلت الشقة، فإذا حماتي تنظر إلى التليفزيون صامتةً ولا تتكلم ولا تدري ما أعانيه.

أبريل 2017

فادية وضياع الحلم

تتلاقي خطوط ضوء الصباح مع آخر آثار ظلام الليل وهي تولي هاربة، فقد حان وقت رحيلها لتفسح ليومٍ جديدٍ جاء محمَّلاً بالآمال والطموحات وكذلك بالأكاذيب والإحباطات كأنك أمام عربة ذهبية يروِّعك شكلها ولكنك لا تدري أهي حقيقة أم خداع. فأنت دائمًا على حذرٍ من إحباطات اليوم كحذرك من كرات نيران البراكين حينما تندلع فجأة فلا ترى سوى سقوطها حولك وأنت لا تدري هل أنت التالي أم لا؟

دموع "فادية" على خديها تملأ المكان كآبةً؛ فهذه هي ساعة القلق اليومية إذا استيقظت؛ فإنها تظَلُّ تبكي وأحيانًا تصرخ صراخًا مكتومًا حتى بزوغ نهار اليوم، وتُلقِي بنفسها، وقد احمرت عيناها وثقلت مثل أكياس الرمل على السرير، كالحجر الثقيل. تغيب ساعتها في تهويمات بين اليقظة والمنام وتحقق الأمنيات وذهابها وصرخات الأحلام ونداءات الماضي وآثاره.

تستيقظ على دقات هاتفها الجوال تمسكه فيواجهها رقمٌ غَيرُ مسجل وغريب لا تعلمه. كادت أن تخرسه ولكنها ردت على الهاتف لتنتفض من سريرها. إنها مكالمة من مستشفى القصر العيني الفرنساوي حيث يرقد زوجها في السرير لإجراء عملية جراحية عاجلة من جراء انقلاب سيارته على الطريق السريع من الإسكندرية للقاهرة.

رائحة الخمر في فمه واضحة رغم مكانته الاجتماعية كتاجرٍ مَرموقٍ وكَبيرٍ في مجال السراميك. يعرفه الجميع ويتقرب منه بعض رجال الدولة المهمين. تواترت على رأسها هذه المعلومات وهي في المستشفى كقطة في حاجة إلى الأمان الذي تستمده من التمسُّح بِمَن حولها وبالمواء الذي يرقق القلب والنظرات الخفيضة لعلها تحظى بالعطف المنشود. دموع "فادية" الغزيرة بللت مُقدِّمة ملابسها، تراه أمامها يدخل غرفة العمليات لإجراء هذه الجراحات الدقيقة وقد تجمَّد الزمن أمامها. الألم في بطنها يعاودها تهرول إلى أقرب دورة مياه وشكلها يستغيث. الساعات تمر بطيئة رغم توقف ساعة الدور حيث تجري الجراحة في آخر الممر هناك في غرفة العمليات.

لحظات وتحس بجلبة غير عادية وخروج ودخول إلى غرفة العمليات. بعدها بحوالي نصف الساعة. يخرج الأطباء منكسي الرؤوس ويهرع كبيرهم إليها ليخبرها بأن الجراح كانت كثيرة والنزيف فوق طاقته ولم يمكن إنقاذه.

تهوي إلى الأرض ولا تستطيع حتى أن تصرخ، لا تتذكر من حولها،

فقط تفتح عينيها ببطءٍ شديدٍ لتجد الإضاءة على وجهها والطبيب يقول لها بصوتٍ كله وِدٍّ:

– حمد الله على السلامة

بعد عدة ساعات تعرف أنها أسقطت جنينها منه وأن هذا كان آخر أمنياتها في الذرية، تعض ملاءة السرير وتتلبثها قشعريرة غريبة ترجها رجًّا، يصاحب ذلك صرخة حادة ومستمرة تخترق المكان كله كالطلق الناري. تهرع إليها إحدى الممرضات لتغرس سرنجة الدواء المهدئ في يدها وقد ترامى إلى أذنها صوت إذاعة القرآن الكريم يردد آيات من كتاب الله وهي تهوي في عالم آخر ضبابي لا تحاول الفكاك منه.

مايو 2017

إهانة

مرة أخرى سبَّني أمام الناس، بل في هذه المرة بصق في وجهي صراحةً بكل ما يحمله ذلك من كراهية وغضب، وهذه هي أول مرة يفعل بي ذلك علانية وأمام الغير. تدفق الدم في وجهي كالبركان، نيران الغضب تأكل من حطب أعصابي وتتآكل منها عروقي وأنا أكتمها كالماء في المرجل البخاري ولكن هيهات لهذا الكتمان من سبيلٍ. انطلقت إلى منزلنا هناك في أحد أحياء مدينة الطالبية بالقرب من الأراضي الزراعية المتاخمة لحدود المباني.

وجدتُني أصعد إلى الدور الثاني حيث مكان إقامتنا أنا وأبي بعد مغادرة أمي للمكان بعدما طلَّقها. أجذب ملابسي على عجلٍ من الدولاب وأحشرها في حقيبتي القديمة والتي تضم متعلقاتي الهامة. حانت مني التفاتة إلى مدخل الشقة فوجدتُ جركن البنزين لزوم استخدامه في إطعام التوك توك الذي لا يهدأ أبدًا.

جال في خاطري ساعتها -انتقامًا- أن أشعل المكان وأنطلق إلى الخارج لكنني حبست النار التي في داخلي وكتمتها في صدري حتى لا تمتد إلى من حولي.

انطلقت إلى الشارع الخلفي والذي يقود إلى محطة المترو، حيث عقدت النية على الذهاب إلى أمي وأهلها في الفيوم حيث تقيم. دموعي غطت خدودي في هطولٍ غريبٍ، لقد تذكرت كل معاملته لي بعد طلاقه لأمي، ذلك الأب الذي ذهب الأفيون برأسه ولم أعد أحتمله صدقوني، رغم أنني أشفق عليه أحيانًا.

إهانته لي زادت بعد الطلاق على نحوٍ غريبٍ، وزادت كذلك ساعات غيابه عن عالم الواقع وتهويماته مع ما يشربه ويتعاطاه.

زاد على ذلك سيطرته على أموالي التي أجمعها من عملي بمحل الكشري الشهير في الميدان الواسع.

صار كل شيء كالعلقم حتى طعم السكر صار مُرًّا في حلقي وأنا أنتظر الإهانة تلو الأخرى. أخرجتني رنات هاتفي المحمول مما أنا فيه لأجد نمرته هناك على شاشته، فقذفت بالموبايل تحت عجلات إحدى المقطورات التي تعوي وأنا أنتظر في موقف عربات الفيوم كأنني أقطع علاقاتي بهذه المرحلة من حياتي وإلى الأبد.

لاحت هذه المشاهد أمام عيني وأنا أقدم لأمي الحلوى بمناسبة عيد ميلاد ابنتي "رنا" والتي لم تكمل بَعْدُ عامها العاشر وأنا في شقتي بـ

"سنورس" بالفيوم والتي اشتريتها بعد عملي في دولة الإمارات هناك في إحدى الوظائف في مجال الأمن.

تذكرت تلك اللقطات وطافت أمام عيني صورةُ الأب وهو مسجى على لوح الغسل البلاستيكي أمامي مغمض العينين معروق الوجه في حجم صبيٍّ صغيرٍ وقد غطت وجهه سحابةٌ من سوادٍ كأنها غلالة من الكآبة. أدخلناه القبر هناك وأدرت له ظهري وفي كفي يدُ "رنا" صغيرتي والتي تحاول فكَّ رموز ما يحدث وهناك خارج المقابر تقبع زوجتي في سيارتي أمام مدافن "أبو الهول" وهواء العصاري يحرك شعرها الأسود الفاحم وظلال من الجدية على وجهها اختفت حينما رأتني و "رنا" ندنو منها.

أبريل 2017

الديك عويس

كانت شمس هذا اليوم مشتعلة كأنها كرة من اللهب تلسع الوجوه والأكف والأقدام. تلسع الزجاج والحوائط والجدران. الفراخ تلوذ بأي قطعة من الظل التماسًا للراحة من هذا اللسع المنتشر في كلِّ مكانٍ تتواجد فيه أشعة الشمس المتمردة العنيفة الشديدة. الفراخ أفواهها مفتوحة، مناقيرها مفتوحة وألسنتها مدلاةٌ أمامها من شدة الحَرِّ تلتمس المياه في أي مكان ريا للظمأ وإسكاتًا للنار التي يفحها تنين الشمس في هذا الوقت.

الوقت هو شهر يوليو، شهر الصيف القائظ الجحيم المقيم كما يقولون، الشبابيك الحديدية ساخت روحها من شدة حَرِّ الشمس وطردت الغطاء الذي يكسوها من الطلاء فسقطت وتعرت وانكشف جسدها ليعلوها الصدأ من عملية رش المياه الدائمة التي يمارسها "عم شوقي" كشعيرة من شعائر اليوم المقدسة. التراب يتطاير في الهواء وكأنه يتمنى جري

الأطفال والصبية في الحارة حتى ينتقل من موضعه تحت الشمس إلى ظِلٍّ ظليلٍ هناك حيث ترطب الجو من حوله مياه مسقة الفراخ "طبق من الفخار أو البلاستيك توضع فيه المياه لسقيا الطيور" الست مسعدة والتي تحتل فراخها الحارة من زمانٍ طويلٍ ولم يقل لها أيُّ أحدٍ شيئًا لطيبة قلبها ومشاركتها بفراخها المذبوحة في حال الولادة أو الختان أو الزواج أو أية مناسبة سعيدة لأيٍّ من أهل الحارة الصغيرة.

كان هناك على رأس السلم في الدور الأول حيث تنبسط الحجرات دون تعريشة أي سقف اللهم إلا من بعض العشش التي تتواجد في حجرتين أو ثلاث من حجرات هذا الدور، ضِيق ذات اليد هو الذي دفعَ الأب للاكتفاء بهذه الحال حتى الآن حيث أن زواجه لبنتين من بناته أكل منه اللحم والعظم كما يقول دائمًا – كان متواجدًا على أول درجات السلم من فوق بمنقاره الأحمر الذي ينم عن الثقة العتيدة بنفسه وقدراته، لقد اتخذ قرارًا حادًّا وحاسمًا بأنه سيكون سيد هذا المكان بلا منازع وله السُّلطة على المكان كله وهو قرار سلطوي بلا مناقشة من أحد أو اعتراض، لن يعترض أحد طريقه .كنا في أيامنا ننظر إليه ونخشاه وكنا حينما ننادي عليه بصوتنا العالي: "عويس... عويس" لحظات ونلقاه أمامنا في توثبه وفوران الريش الأحمر القصير تحت رأسه كأنه أفعى الكوبرا التي تستعد للإجهاز على فريستها في لحظةٍ واحدةٍ خاطفة وقاطعة ومؤكدة. كان منقاره العذاب لنا، كنا نصرخ ونحن صغارٌ من نقراته الموجعة والمدمية أحيانًا إذا ما أصررنا على إمساكه لوقت أطول.

كانت الشمس الحامية لا تثنينا عن الصراخ والنداء عليه حال عودتنا

من مدرستنا ونحن نصعد درجات السلم لنضع طعام الفراخ الذي تعده أمي من فتات الطعام أو بقايا الخضروات التي تحضرها من السوق وتقطعها قطعًا صغيرة حتى تستطيع الفراخ أكلها بمناقيرها الحادة التي لا تترك أي شيء حتى لو كان حجًرا.

كنا نراه وما إن يرانا حتى يتحفز للقيانا فنهرول مسرعين واضعين ما حملته أيدينا الصغيرة في أي مكانٍ كيفما اتفقَ خشية منه ومن وجوده وهجومه ونهبط وقلوبنا تدق مبتهجين بالنجاة من نقراته وضاحكين لأننا دخلنا مملكته وخرجنا بدون أيِّ نقرةٍ هذه المرة. كانت أمي تنظر إلينا وهي تضحك ولا تقول شيئًا وكنا نرتمي في حضنها ونحن فرحون بها وبسرورها فتضمنا مبتهجةً دون أن تقول شيئًا.

كنا حينما نراه، ننادي عليه ساخرين أو معاندين له: "عويس.. عويس"

و إذا بنا نراه أمامنا في توثبه منطلقًا كالسهم وهو يدافع عن المكان وعن فرخاته اللائي يشعرن بالابتهاج لوجوده وسيطرته وسُلطته.

مرت الأيام والأسابيع والأشهر ممتدة بنا وبـ "عويس"، وإذا بنا نجد أن "عويس" الذي كنا نراه فتيًا قويًّا لم يعد كما كان وأصبحنا نراه يطأطئ الرأس ربما خجلاً من حالته التي صار عليها، فقد كان لا يجيد أحيانًا التحكم في حركاته، وكانت تختلف قدماه ويسقط على جنبه. لم ندرِ ماحدث لـ "عويس". أسفنا لحاله في قرارة أنفسنا وإن كنا نميل إلى عادتنا القديمة في مناغشته ودفعه إلى الرد علينا ولكننا لم نجده كما كان أبدًا. كنا نرى قوة "عويس" تتدهور أمامنا وتخور ونحن سكوت، سألنا أمَّنا في ذلك الوقت عن السبب في حالته هذه فقالت:

– لقد أصابه داء "الرُّكَب" وسكتت وكأنها تدبر أمرًا في نفسها.

حتى جاء ذلك اليوم وتيقظنا على صوت حركة غير عادية ووجدنا أمَّنا تهبط درجات السلم وفي يديها "عويس" مذبوحًا، ظللنا واجمين ونحن نرى ما حلَّ به ولا نستطيع أن نقول شيئًا ولفحُ حرارة الإناء يمسح وجوهنا ونحن ننظر إلى عويس وهو في الماء الساخن استعدادا لإتمام باقي عمليات نزع ريشه وحتى وضع أجزاءه في الإناء الكبير التي ننتظر بجواره لنصيبنا من اللحم.

أختي الصغيرة تثرثر في كل شيء وتسأل عن كل شيء لدرجة أن أمي كانت تسكتها بالعافية، كنا نضحك من كلامها عن "عويس" وقد اصطلت بنقراته عدة مرَّات أدمت يديها وأحيانًا وجهها، وكنا في هذه الإصابات نضحك عليها علانيةً وفي سرنا وهي تزداد بكاء لسخريتنا منها.

كنا نضحك على كلامها عن "عويس" وفرحتها في ذبحه ويتملكنا صمتٌ مطبق نحرك فيه رؤوسنا ولا نتكلم، ولكن نفس السؤال لا يزال يدور في عقولنا الصغيرة:

يا ترى هل ستأتي الأيام بـ "عويس" آخر يدخل على نفسنا البهجة والاهتمام والسرور والإحساس بالمغامرة حتى لوجاءت هذه المغامرة من طائر أخرس، كما كانت تقول أمي عن الطيور من فراخ وما شابهها وهي تضرب المثل بوفاء الطيور والمخلوقات في مقابل نكران الجميل وخسة بني البشر وأفاعليهم ببعضهم البعض، لا يزال السؤال يتردد في عقولنا الصغيرة ولا يجد إجابة.

سبتمبر 2015

الخال ضيف

دقات خاطفة على باب المنزل الساعة الثانية صباحًا. القلق يكهرب الجو والتوتر يأخذ مساربه في جسد الأب وتحركات الأم، يأتي صوت الأب من داخل المنزل مترددًا، ولكن فيه حزم وغضب لإقلاق الراحة في هذا التوقيت من الليل:

- مين.. مين؟

يأتي الرد خافتا وقويًّا:

- أنا ضيف.. ضيف..

تتهلل أسارير أبي وهو يحث الخطى نحو باب المنزل الخارجي لفتحه، وقد تبدَّلت حالته من الضِّيق إلى الفرح وهو يردِّد من وراء الباب:

- يا مرحبًا.. يا مرحبًا..

لم أكن قد رأيته من قبل، أسمر اللون في طيبة، فارع الطول قوي البنيان أول ما يهولك منه شفته العُليا حيث تَجد وكـأنَّ هناك شفة أخرى قد نَمَت أسفل منها وتتضح أكثر حينما يضحك وكنت أتساءل هل هذه هي خصيصة للخال ضيف أم إنها تنمو مع مَن هُم على شاكلته، كنت تحس في القرب منه بالطيبة، وحينما يضحك كأنه طفل كبير يضحك ويترك نفسه، فتجاريه في الضحك وأنت لا تدري سبب كل هذا. يداه كبيرتان ضخمتان وكأنهما تلفان المكان والأشياء. كنا نتحلق حوله في براءة الأطفال ونأكله بعيوننا المتساءلة ونحن نبحث فيه عن النموذج المحتذى. كانت حركاته وسكناته تحت أعيننا التي لا ترحم ولا تترك شيئًا إلا وتسجله ككاميرا التصوير الدقيقة الحثيثة والمتأنية.

يأتي الخال "ضيف" ومعه حقيبته الممتلئة بأشياء الجيش من بسكويت بالكمون وأشياء أخرى عديدة لا أتذكرها. ضخامة الخال ضيف كانت تحتل السرير كله بمفرده، اللهم إلا من مكان صغير ننحشر فيه إلى جواره، كانت لديه لازمة يرددها وكنا نضحك منها حين نسمعها:

– كله بالهبل.. كله بالهبل..

كلماته صادمة لآذاننا الصغيرة ونحن لأول مرة نسمع منه هذه الكلمات ونسمع بعدها عبثيته وضحكاته وسخريته من الأمور والأشياء التي تقض مضاجعه.

كانت "الجوزة" تصاحبه أينما كان وتحرَّكَ لدرجة كنتُ أخاله يريد أن يدخلها معه دورة المياه. كنت أخرج إلى الشارع لأحضر باكو المعسل

بل كنت أحضر أكثر من باكو، كنا نتحلق حوله وهو يرص الحجر حيث يضع المعسِّل وقطعة الفحم المتقدة ويشد نفسًا من عصا الجوزة فنجد ماءها يقرقر، ونجد سحابات الدخان تملأ سماء المكان، كنا نشم للجوزة رائحة دخان غير رائحة دخان سجائر.

كان قريبًا لأمي، وكنا ننادي عليه: خالو خالو، كانت تنظر أمي إليه حينما تراه وهي تقول له:

- أخبارك إيه يا "ضيف"؟.. وكيف حال الحاجّة والأسرة؟

كان يتحاشى نظراتها، وكان يجيب ورأسه مطأطأ بأن كل الأمور بخير، ثم يعاود رص الحجر تلو الآخر في نشاطٍ وهِمَّة وكأنه في سباق. أبي يحب الخال "ضيف" ويحكي عنه كثيرًا وعن رجولته وجدعنته معه في مواقف كثيرة، وكيف أنه عاصر الحرب الأخيرة بين مصر وإسرائيل، وكان يسوق سيارته لحمل التموين للجيش، وكيف أن قذيفة كادت أن تقتله ذات مرة.

يضحك أبي من كلمات الخال "ضيف" وقفشاته، ويصرخ في أمي أن تحضر الطعام المناسب ونحن نترقب ذلك ونجد هناك الحمام والفراخ وباقي ما لذَّ وطابَ، وحجرة الضيوف والتي كنا نسميها فيما بيننا بـ "الحجرة التانية"، كنا نأكل حتى نشبع لشهور قادمة ونضحك.

الخال "ضيف" معظم الليل لا هَمَّ له إلا حجر المعسل تلو الآخر والحكايات المختلفة عن الجيش والحرب والحياة واللصوص وندرة

الأكل هناك وطلقات المدافع وغيرها من الحكايات التي نسمعها ونجعله يعيدها علينا ونحن نسمع تجارب لأول مرة في حياتنا.

آه.. كم من الصور رُسِمَت في مخيلتي عن هذه المعارك ولَكَم صحوت من نومي متوترًا على أحداثها التي غزت أحلامي ورأيت على إثرها منزلنا ينفجر بقذيفة من القذائف التي كان يحكي عنها خالي "ضيف"..

ظل خالي "ضيف" ثلاثة أيام.. وفي يومٍ من الأيام سأله أبي بلطفٍ عن ابنه ومكانه وأحواله، وكان ساعتها قد استيقظ لتوِّه من على السرير وقد افترش الأرض حيث كانت هناك حشية أعددناها لجلسته التي لا يغادرها إلا على النوم وبجواره المذياع الصغير.

وجدناه يخفض رأسه إلى الأرض ورَجَّة تأخذ هذا الجسم العملاق وإذا بدموعه تجري على خديه والنشيج يملأ صدره، لقد تذكر ابنه الوحيد الذي غادره وهاجر إلى كندا تاركًا له المنزل هو وزوجته وأخذ بكاؤه في الاشتداد مما دفع أبي إلى التهدئة من خاطره وهو يقول:

– طالما كويس.. يبقى كله تمام يا ضيف وبكرة راجع إن شاء الله.

حينما استمرت موجة البكاء بخالي "ضيف" ووجدنا أبي نحن الصغار قد أخذنا في البكاء لبكائه، أمرنا أن نصعد إلى السطح كما كنا نطلق عليه الدور الثاني فيما بيننا، ونحن لا نصدق في أنفسنا أن هذا العملاق يمكن أن يبكي مثلنا وأن يضعف وأن ينتابه الحزن.

خرجنا وفي أيدينا بعض البسكويت بالكمون الذي أعطاه لنا بالأمس

ونحن نُعِدّ أنفسنا لما سنفعله من خطط الحرب والدبابات التي سنصنعها بالقرب من عشش الفراخ.

نهنهات خالي "ضيف" وصوته عال لدرجة جعلتني الآن لا أتذكر المشهد برمته بعد أربعين عامًا أو يزيد إلا ومسحة من الحزن تأخذ بخناقي، وأنا لا أعلم أحيٌّ هو في دنيانا هذه أم ميت؟

الأربعون حرامي

تدق الضحكات الرنانة في الدور الثاني. يسمع لها صوت على الجدران كأنها يدُ شيطان أو عملاق ممن نراهم في الأفلام وهم يحاولون الخروج من زنزانة خانقة تشل حركتهم وتأخذ بخناقهم فيدقون بأيديهم وأقدامهم العملاقة على كُلِّ ما حولهم حتى يتحقق مرادهم. تتواصل الضحكات في سيمفونية تعلو على أصوات تليفزيونات الجيران. يتوسط أبي الجلسة على السطح أو ما يُسمى بالحضير. عيناه مملؤتان بالدموع من فرط الضحك على حكاية خالي عبد الغفار الذي تجاوَب مع أبي في ضحكه وسرعان ما انتابه سعال مكتوم انفلت إلى كحة حادة استمرت للحظات.

قال أبي لخالي:

- وعملت إيه يا عبده؟

ردَّ قائلاً:

– أبدًا، رجعت بضهري من الخوف لحد ما وقعت على الأرض ومش عارف أصرخ والدم. نازل من رأسي وعيني عليهم.

يرد أبي من بين ضحكاته وأمي في نفَسٍ واحدٍ:

– هو كان عددهم كبير؟

يعلق خالي في دهشة من عدم معرفتهم لعدد الحرامية في تلك الحادثة:

– أيوه أربعين حرامي بالتمام. أنا في الضلمة شايفهم وهما في غيط الورد قاعدين وقُدامهم النار وبيشووا درة ومش شايفني.

يصمت قليلاً وهو يتنحنح وكأنه بهذه الحركة يدفع الذاكرة كي تسعفه بالتفاصيل:

– كانوا مفتريين لم يتركوا أحدًا إلا وأصابه من شَرِّهم شيءٌ وكدت ذات مرة أشتبك معهم لولا ستر ربنا وهذا المسدس الألماني الذي في جنبي.

هنا أخذ الحديث مأخذَ الجَدِّ وخالي يعلِّق على جبروت هذه العصابة وظُلمهم والإتاوات التي كانوا يفرضونها على خلق الله وبخاصة الأغنياء في بجاحةٍ ليس لها نظير.

صمت خالي قليلاً وهو يرمي رأسه إلى الوراء في تفكُّرٍ وتأثُّرٍ:

– كانت أيام لم أترك حقي ذات مرة، بل وكدتُ أقتل. كانوا عايزين خروف. ووقفت لهم بالسلاح.

وكانت هتبقى معركة، لولا خمسة من إخواتي بالسلاح والرشاشات في الوقت المناسب.

كان أبي يتابع بعينيه صبَّ الشاي في الكوب الزجاجي الكبير وهو يهز رأسه مؤكدًا على كلام خالي أو للتعبير عن فهمه وتعاطفه معه. خيَّم الصمت على المكان. وإذا بخالي ينخرط في بكاءٍ له نشيجٌ، فلقد تذكَّر وفاة "عيشة" زوجته والتي كانت واقفة إلى جواره حينما سقط ساعة رجوعه على عجلة بعد رؤية الأربعين حرامي.

جاء صوت أبي هادئًا وساكنًا ورخيمًا كَمَنْ يُقِرُّ حُكمًا:

– وحِّد الله يا عبدو كلنا هنشرب نفس الكاس.. الله يرحمها.

بعد برهة من الزمن خيَّمَ صَمتٌ مُطبق على المكان، فأبي يحتسي الشاي وهو شارد اللب، وخالي ينظر إلى كوب الشاي وكأن به شيئًا. تحضر أمي الكنكة لدور شاي ثانٍ وأنا أبحث عن قطتي الصغيرة هناك في الحجرة المجاورة وحديث الأربعين حرامي لا يزال عالقًا برأسي الصغير ومشهد فيلم الأربعين حرامي وعلي الكسار والبلاليص التي تتكلم يدق في ذاكرتي وكلمة "افتح ياسمسم" بموسيقاها المحبَّبة الخالدة ترن في أذني وأنا أهرع إلى أمي وأنكمش إلى جوارها ككتكوت صغير والكل يضحك عليَّ.

الخشب والطلقات النارية

الأصوات المنبعثة من قلب الحارة عاليةٌ كأنها دقات محركات السيارات التي يصلحها الأسطى عادل أحيانًا وتقض راحة السكان في الحارة وأصحاب البيوت فيها. الأصوات كأنها رنات نحاسية لأجراس عملاقة تتسلط على رقاب الجميع وتَشدَخُ رؤوسهم في تحدٍّ صارخٍ لكل قوانين الراحة وقواعد الذوق العام.

أولاد "الحاجة سهيلة" يلقون بالخشب الذي يستخدمونه في عملهم كنجَّارِي مسلح في عرض الحارة والتراب قد تواشج مع الصوت العالي وأخذ في دواماتٍ يملأ المكان ويزلزل ذرات كل شيء بل ويخترق مسام الجسد وينفذ إلى العظام.

خلد أبي إلى النوم من ساعتين فقط، يفتح الشباك حينما لسعه عقرب الضوضاء وهو ينادي بصوت مبحوح أخذ منه النوم وخالطه:

– الرحمة يا جماعة الرحمة ورانا شغل وعايزين نستريح.

لم يأت رد، بل صوت إحدى الرجال لآخر:

– يلَّا ياعم خلينا نخلص من المكان دا واللي فيه.

صمت أبي ولم يتكلم وابتلع الكلمات في دوامة صمته التي لفَّته وقد جلس على حافة السرير في تبرم واضح وقد كست وجهه علامات غضب غير مسبوق. لم تمض لحظات إلا وعربة أخرى مثل الأولى تدق أرضية الحارة الضيقة وتلقي في رعونة بما عليها من خشب في قلب الحارة وبالتحديد أمام منزلنا ومنزل "عم شوقي" لدرجة أن رؤوسًا عديدة خرجت من البيوت وقد هالها الصوت، وضحكات العمال تملأ المكان. هنا صرخ أبي بصوت كأنه الرعد الخاطف وقال:

– الرحمة، حرام عليكوا هو مفيش إحساس.

جاءه رد من بين الضحكات:

– في إيه ياحاج هو كل شويه زعيق؟

هنا فقط وجدت أبي يهرع إلى دولابه الخاص ويُخرج مسدسه الألماني من جرابه ويرسل طلقات نارية إلى الأخشاب الراقدة في الحارة وكأنها عدو يريد أن يقتله وهو يقول:

– اللي شايف نفسه راجل يقرب من الخشب دا الليلة.

لحظات ووجدت "عم شوقي" في المنزل المواجه يتجاوب مع أبي بزخات من مسدسه هو الآخر ويفرغ طلقاته في الأخشاب التي رقدت في الحارة وأخذت تتطاير من اصطكاك الطلقات بها.

لم أرَ أحدًا من الرجال الذين كانوا مع الخشب، فقط كبيرهم توارى تحت بلكونة "عم شوقي" وقد ألجمته الرصاصات التي أخرجت كل من في الحارة من شبابيكهم وكأنهم يرون احتفال "سيدي محمد البطل".

"عم شعبان" بجلبابه الأزرق تتطوح يده هي الأخرى ببندقيته التي لم أرَها من قبل والطلقات النارية تخرج منها إلى أكوام الخشب في غلٍّ واضحٍ.

عند هذه اللحظة جرى كبيرهم الذي كان يلوذ تحت البلكونة وهو يصرخ:

- خلاص حرَّمت.. حرَّمت يا جماعة..

لم يتم حمل الأخشاب إلا في اليوم الثاني في وضح النهار وتم حملها على عجلٍ إلى خارج الحارة وليس إلى المخزن المعتاد لها في منزل "الحاجة سهيلة" والتي كانت تصرخ من وقع الطلقات التي صارت حديث الحارة وتندر الصبية الذين خلقوا تمثيليات حولها وعملوا نسخًا منها في ألعابهم طوال الأيام التالية وأنا منهم.

مر ثلاثون عامًا على هذه الحادثة، كنا حينما نتذكرها يتندر أبي بها وهو يضحك مع "عم شوقي" ورجال الحارة ومعهما "عم شعبان" الذي أخذَ منه داء السكري مأخذَه وهم يتكلمون في أسى عن قلة الذوق وعدم احترام الغير.

وكأن لسان حالنا يقول "اللي اختشوا ماتوا "و "لازم العين الحمرا"

مايو 2017

الطوق والترعة

يملأ الطريقُ الترابي في غباره المثار حلوُقَنا. نجري وراء بعضنا البعض كأننا نطير هناك في سماء المكان ونحلِّق كالعصافير التي تحط على الأراضي الزراعية الخضراء الفسيحة حولنا في زقزقة كأنها الأناشيد العذبة الصاخبة. نراها فنحس بالحرية ونداءات خالي عبد الغفار دائمًا تطاردنا كظلنا نراها هناك فوق تراب الطريق تحثنا على إنهاء اللعب والعودة إلى المنزل ثانية. العرق اختلط بالتراب والغبار على جباهنا ليكون طبقة إسمنتية كأنها الفولاذ. أقدامنا ملئت بالتراب فنحس كأننا نحمل فيها أكياسًا من الرمل.

نجري ونحن ندفع طوقًا أمامنا عبارة عن الإطار الخارجي القديم لعجل سيارة نتواثب حوله كالذباب مِنَّا من يعيق تقدمه في محاولة لإغاظة مَن يقود ومِنَّا من يحاول المساعدة ونحن نصر على استقطار كل ثانية في وقتنا للعب واللهو والشقاوة.

فجأةً ينفلت الطوق من بين أيدينا الصغيرة ليجري هناك ونحن نعدو خلفه حتى تسمرت أقدامنا على حافة الترعة ونحن نراه يغوص في مياهها، فلم أجد نفسي إلا وأنا أندفع صوبَهُ في قلب الماء وقدماي تغوصان وأنا أحاول التشبث بحافته وأنادي على أخي وأختي وبنات خالي عبد الغفار الصغار من حولي:

- إلحقوني، هاغرق هاغرق..

مدت الأيدي إليَّ وما هي إلا لحظات ووجدت خالي عبد الغفار في طوله الفارع وسمار وجهه يمد يدًا قوية كأنها الصخر ويحملني والطوق معًا إلى الطرق الترابي والمياه تقطر من ملابسي ولفح الهواء في جسدي كأنه مسامير مندفعة في مسام جلدي.

لم يجدوا لي ملابسَ في منزل خالي سوى جلباب "ريم" ابنة خالي من سني تقريبًا. لم أستطع أن أتناول العشاء من ضحكاتهم عليَّ وأنا في جلباب "ريم" والتي ما إن تراني حتى تنفجر بالضحك وهي تغطي فمها بيديها وتناديني بكلمة "عليه" بدلاً من "علي". أتصنع الضحك مغتاظًا ثم أهرب من المكان حينما تمتلئ نفسي بالحنق والتألم كالقدر الذي يغلي من البخار.

جاء وقت ما بعد العشاء، تحلقنا حول خالي الأكبر الذي أخذ يحكي لنا حكاياته مع طرقعات النار في قطع الخشب التي جمعناها من الغيطان المحيطة. أما أنا فقد تواريت عن الأنظار، أرنو فقط بعيني كقط مرعوب وقد توارى معظم جسدي وجلباب "ريم" المزركش.

انتهت الحكايات ووجدتني أدلف إلى السرير ملتفًا ببقايا ذكريات حكايات خالي ومشهد الطوق وهو يهوي في مياه الترعة ويغوص يتكرر أمامي كأنني في حُلمٍ يجذبني لأطراف سحيقة هناك في بِركة ماء لا قرار لها، وظلال ضحكات "ريم" ومن في المنزل تدفعني لعالم النوم بسكونه وأحلامه.

مارس 2017

الممر المغلق

شارع الهرم ممتد في ظلام ما قبل العشاء. أصوات السيارات حادةٌ تخترق العظام ومسام الجسد كله وخلاياه على الطريق هناك حيث محل الملابس الكائن أمام كازينو الليل، المحل ممتد وطويل كأنه عالمٌ بمفرده تدخله فلا تخرج منه أبدًا إلا وقد أتى على ما في جيبك بل وامتدت يده كالأخطبوط إلى بطاقتك الإئتمانية.

ترقد كالثلج عمارة ضخمة يلوح بينها في لونها الأبيض والعمارة الكائن فيها هذا المحل ممرٌ مغلقٌ تعلوه عمارة بُنية اللون. لاحت مني التفاتة إلى هذا الممر والذي كان مفتوحًا حينما كنت في سني دراستي الابتدائية بمدرسة "الطالبية الحديثة"، ساعتها الممر كان يعج بالباعة الجائلين وكان على أوله بائع للفطائر الطازجة النظيفة "عم حسين" وهو الوحيد الذي كانت تسمح لي أمي وأختي الكبري "سامية" بالشراء منه. أعاد الممر

عليَّ ذكرى ذهابي هناك عدة مرات، حينما كانت تأخذني أختي "سامية" إلى منزل زميلتي في الدراسة "منى" والتي كانت سمراء اللون مثلي نحيلة وفيها عصبية بادية وإن كانت تفرح لقدومي إليها. في شقتة "منى" شاهدت لأول مرة الثلاجة رُأي العين، ولأول مرة أرى البانيو كذلك. تجولنا في الشقة أنا وأختي و "منى" وأمها التي أحبت أختي ولم تكن تفارقها. لا أنسى الطعم الحلو لقطعة الجاتوه التي أعطتني إياها أم "منى" والتي أحسست ساعتها بطعمٍ غريبٍ حلو لا يُقارَن بالعدس بالبصل والفول والطعمية التي نتناولها تحت تكشيرة أمي بأن نأكل على مهلٍ ولا نغترف من الطعام "الغموس" كثيرًا حتى يكفينا جميعًا نحن الستة.

كنا نزدرد الطعام ونشرب الشاي المُر الذي لا يتناسب مع سننا وليس لدينا ثلاجة أو بانيو أو تلفاز، فقط راديو نسمع فيه تمثيلية العصاري وحكاية "السنجق" وجبروته على الفلاحين. نسمع هذه التمثيليات وأمي ترعى الكتاكيت وتطعمهم وعيناها على غدر القطط ومكرها وتربصها.

لا تزال ذكرى شقة "منى" في مخيلتي تدق كالجرس حينما أتذكر الصور الملونة التي كنا نرسمها سويًّا وكيف أن أمي سمحت لي بأن أقضي يومًا كاملاً معها وهي تعيش بمفردها مع أمها، فوالدها على سفر بإحدى دول الخليج. لا أزال أتذكر ضحكات "منى" حينما كنا نرسم العصافير وتخونني مهارتي فتنقلب صورة العصفور لشيءٍ آخر، تضحك هي وأنا أغضب ثم أجاريها في ضحكاتها الطفولية.

نجحنا سويًّا في الصف الثالث الابتدائي والرابع والخامس، لتختفي من حياتي في الصف السادس وكل ما معها عدا البناية الرمادية التي لا تزال قائمة تشعل الذكرى التي طمرتها السنوات ولكن لظاها لا يزال يُخرِج لسانًا من جمر الذكرى التي تغمرنا كالموج ونحن بمركب الحياة ننتقل من ضفة لأخرى في تحرك لا ندرك نهاياته.

"أمير" ومدفن العائلة

خفَّ لسع الشمس قليلاً وبدأت نسمات الهواء تشرخ آثار الحر والصهد وتبيض هناك بيضات الوداعة والظل الوارف وهفهفات نسائم تمر في سماء الحارة وتمس الوجوه التي استعبدتها نار الظهيرة بلا رحمة أو رأفة وهي النار التي لا بُدَّ أن تكتوي بلظاها أينما كنت سواء دخلتَ إلى الحارة زائرًا أو كنتَ من أبنائها الذين يعرفونها ويدركون هجيرها. بدأ الماء يخرج من منازل الحارة المتلاصقة في محاولة مستميتة لجلب الهواء اللطيف إلى خلايا المكان؛ فهذا جردل صغير يحمله ابن "عم شهدي" وهو ثقيلٌ عليه، يرش منه بيده الصغيرة، وتلك قطة "عم رمضان" بواب العمارة على ناصية الشارع العمومي تتمسح بأطفال الحارة الذين يغدقون عليها مما في أيديهم من طعامٍ. "عم شوقي" يخرج خرطوم الماء البني اللون من الشرفة في الدور الثاني من منزله وكأنه سحابةٌ تهطل ماء

وتحي مواتًا، يرش الماء أمام منزله بالأخص وبقدر ما يطول رشاش الماء الأماكن القريبة من منزله على اليسار وعلى اليمين في استماتة لأن تصل المياه إلى أماكن عريضة من الحارة وتخفف من حِدَّة الحر وتطفئ مكان نفثات تنين الظهيرة والذي ترك المكان منذ لحظاتٍ، يزداد النسيم هبوبًا مع زخات الماء فتنتعش النفوس من اختناقٍ عاينته في الساعات الفائتة. أطفال الحارة كتلة من الشيطنة يجرون هناك في كل مكان ويتواعدون على كيفية تقضية ساعة العصاري في لعب الكرة الشراب فيما بينهم، وتراهم يقسمون أنفسهم لجماعات مختلفة ذات نفوذ ويحترمون مناطق نفوذهم وإذا حدث عراكٌ فيما بينهم كانت الطامة الكبرى؛ حيث لا بُدَّ أن تشج رأس اثنين لثلاثة منهم على الأقل من رمي الطوب على بعضهم البعض. قلق الحارة وسكونها مرهون بهم وبما يخططون.

أخذ الهواء في الاندياح في سماء الحارة كدوامات الماء في البحيرة. أصوات عالية تخرج من منزل "أم أمير" وفجأةً تنفجر مُخلِفَةً في الحارة عدةَ أفرادٍ على أرضيتها يتشابكون بالأيدي والأرجل وترتطم أجسادهم كجلاميد صخور حرَّكها إعصار عاتٍ من أعلى التل. أخوات أمير يصرخن في الحارة ويولولن عليه وعلى ما اقترفت يداه في حق الأسرة. ينهمر نساء الحارة من بيوتهن على صوت الجلبة التي انبثقت فجأة في قلب الحارة كأنها بركانٌ يريد الجميع تحاشيه وبخاصة في هذه الساعة "ساعة العصاري" والأنتخة كما كان يسميها "سعيد البواب" سليط اللسان.

صراخ أخوات "أمير" كان يُردد عبارات تصك الآذان لأول مرة:

-تعالو شوفوا "أمير" المفضوح اللي باع قبر أمه علشان الفلوس، الناقص الناقص.

كل نساء الحارة جفلن للخلف من الكلمات التي تخرج كالرصاص. الحيرة تملكت الوجوه والعيون مشدوهة كلها استفسارات وطلب المزيد من الإيضاح، أخذ الكل يردِّد في نفسه كلمة أو كلمتين مما ينم عن الضيق لهذه الفعلة الشنعاء وكل العقول تفكر أين ذهب برفات أبيه وأمه. لم تكد هذه الصور تمر على مخيلتي إلا ووجدت "أمير" منطرحًا على الأرض وشباب العائلة وأخواته يركلونه ويسبونه بأفظع السباب لهذه الفعلة التي لا تخطر على بال الأبالسة.

استمر رجال الحارة في التوافد على المكان كأنهم الجراد ولم ينقض نصف الساعة إلا ووجدنا مفروشات "أمير" في نهر الحارة وأقسام وأيمان مغلظة لتركه للمنزل من فوره جرَّاء ما فعله من بيعه لمدفن العائلة من أجل المال. لم تتوقف ألسنة أهل الحارة عن الحديث عن هذه الحادثة لفترة طويلة وكان لسان حالهم في كل ما يقولون:

- ياما هنعيش ونشوف..

جلست في شُرفة منزلنا بالحارة والحادثة تدور رحاها في قلب الحارة وأنا أفكر في نفسي يا ترى ماذا جرى لرفات أم أمير ووالده؟ كيف استطاع إقناع الزبون بشراء مدفن فيها رفات؟ أين أخفى الجثث؟ أخذتُ أفكر

في الأمر وأنا أحتسي الشاي الساخن الذي أعدته لي أختي "آمال" على عجل ولسعني في طرف لساني وجعلني أسب "أمير" وسيرته وقلة أدبه ووقاحته وجرأته على الأموات بصوتٍ خافتٍ ولكنه مسموعٌ لي.

خالي "مستكة"

كنا ندعوه "مستكة" كنت أضحك كثيرًا من هذا الاسم وننقلب على ظهورنا أنا وإخوتي وأخواتي حال سماعه ولا يسكتنا إلا نداءات أبي أو نظراته الحادة كالسكين، وأحيانًا كلمة "عيب" الحاسمة كالسيف وقادرة على إسكاتنا في لحظة واحدة وبضربة قاصمة. كان خالو "مستكة" أسمر اللون، طويل، حتى إنه كاد أن يطول السقف، وكان وجهه تلوح عليه إمارات الطيبة رغم ضخامة جسمه وذراعيه وساقيه. كان مفتول العضلات، عريض المنكبين، حنونًا، لم أرَ عليه غلظة قَط. حينما كان يحضر كنا نتكالب عليه وننادیه بصوت العصافير "خالو مستكة"، "خالو مستكة"..

كم من المرات حملني أنا وأخوتي بيديه ويضحك ويخرج لنا من جلبابه الفصفاض الحلوى الملوَّنة مما يجعلنا نتخاطفها ونهرول إلى الخارج ونحن نقبله فينتشي ويعلو وجهه احمرارٌ خفيفٌ.

حضر ذات مرة على غير عادته صامتًا منكس الرأس، كمنًّا في أماكننا كالكتاكيت التي تخاف الطائر الجارح وتترقب حضوره يصاحبه الموت ولا تدري متى تحين ساعتها.

أمي تتكلم عن أشياء ومنها نلمح كلمات علاج، الكبد، الدكتور، المستشفى، الحالة متأخرة، ما العمل؟ كانت هذه هي المرة الأولى التي لم يعطنا فيها خالو "مستكة" الحلوى، بل الصمت الذي خيم على كل شيء في المنزل حتى الفراخ في الدور الثاني كانت صامتة ولم أسمع لها صوتًا. حضر أبي وهو ينهج من المشي السريع وارتمى على الكرسي أمامنا وأمي تهدئه.

أخذ خالو "مستكه "يذوي أمامنا وبطنه ترتفع على غير العادة وعلامات الفتوة والصحة في بدنه تتلاشى حتى وجدناه مرة يمسح دموعه، فجرينا إليه ونحن نقبِّل يديه ورأسه ونطلب منه أن يخبرنا عن السبب حتى نساعده، فإذا به يضمنا إلى صدره العريض ويزداد بكاء. طالت الأيام بخالي "مستكة" وهو يتأرجح على سلم الحياة صعودًا إلى عالم الملكوت. جاء أحد أيام الجمعة وكأنه يوم القيامة امتلأت حارتنا بكل قاطني الفيوم من الرجال والنساء والشباب والأطفال، لقد مات "مستكة" على سرير أبي وغُسِّل في حجرته ورأيت ماء الغُسل يقذف به إلى جوار جدار منزلنا الخارجي تصحبه صرخات النساء وعويل الأطفال.

مات خالو "مستكة" كما كنا نناديه ودّعناه بصراخنا وعيون كواها البكاء حتى احمرت ونحن نتصارع على بقايا حلوى منه في جيوبنا ونحن نصرخ مع الباكين ونَعشُه أمامنا يغادر الحارة إلى مقابرنا في أبي الهول حيث يرقد أفراد أسرتنا الذين رحلوا وينتظرونه هناك على الضفة الأخرى.

رائحة الحارة

الساعة الثامنة صباحًا. الباب الخشبي للمنزل يفتح بصعوبة محدِثًا مختلف الأصوات التي يمكنك أن تتخيلها ولكنه في النهاية ينفتح ليخرج أبي إلى الحارة في خطوة واحدة وبعدها يمضي عدة خطوات أخرى ليدلف إلى "شارع عثمان محرم" حيث المعمعة من عربات على مختلف أنواعها وأشياء أخرى عديدة كأنه يومُ الحَشْر. لم تكد تمر ثوانٍ على خروج أبي إلا ووجدنا صوته العالي هناك في الحارة فاندفعنا لنجده هناك على عتبة الدار منكس الرأس، وعلمنا أن الكرة قد أصابته في ظهره لدى خروجه. نظرت فإذا بثلاثة من أولاد "عم شحتة" في مثل سني وأكبر يلعبون الكرة ولا ينظرون إلينا في استخفاف بادٍ ولا مبالاة واضحين بما فعلوه فلم أجد نفسي إلا والدم يفور برأسي وأتجه مباشرة إلى حيث العِصِيّ الخشب التي احتفظ بها في مكان ما بالقرب من المدخل وانطلقت

إلى الحارة في جحيم الغضب وبرق الانتقام لأضرب أول من صادفني منهم على رأسه ثلاث ضربات موجعات فجرن الدم من رأسه وجريت وراء أخيه الذي يكبرني لأتحاشى طوبة كادت أن تخبط ركبتي لأضربه على كتفه بكل عنفٍ وعلى رأسه بكل قوتي ثم أكمل بضربتين سريعتين. أما الأخ الثالث فكان قد جلب عمودًا حديديًّا صدِئًا وأراد أن يعاجلني بضربة ولكن فوران غضبي جعلني أطير في الهواء لأضرب يده المتشبثة بهذه الحديدة بكل قوتي وأعاجله بضربة على كوعه ليسقط متلويًا على أرض الشارع. الثلاثة يفترشون أرضية الحارة وأنا أعاودهم بضربات لكيلا ينهضوا حتى على ركبهم وأكيل لهم السباب لقلة أدبهم وعدم احترامهم. لحظات ووجدت أباهم يخرج إلى الحارة ويعاين ما كان منِّي وأنا أقف كالفهد الذي أراد الموت وشمر له. لم يتكلم وخاصةً حينما وجد أمي تحضر البندقية من جوف المنزل لوالدي وتسلمها إليه وكأن الموت خيم على كل شيء في المكان. جذب "عم شحتة" أولاده وزوجته إلى داخل منزله وأغلق الباب عليهم وما هي إلا لحظات وتنطلق رصاصات بندقية أبي في سماء الحارة رصاصات كأنها الموت ليدخل مَن كان ينظر من الشرفات إلى الداخل كفأرٍ مذعورٍ.

ظلَّ أبي على حاله هذه لمدة نصف الساعة وقد نزل إليه رجالات الحارة وقاموا بتهدئته وإقناعه بالذهاب إلى عمله.

في المساء كانت هناك جلسة عرب كما يقولون، حضرها والدي

وأخوالي مدججين بالسلاح، وكان الكلام مختصرًا من والدي وكانت كلمة واحدة:

-عيب يا شحتة اللي بيحصل ده عيب. في الصعيد بتضيع فيها رقاب.

لم أرَ والدي في حياتي غاضبًا مثل هذا اليوم، ولم أرَ نفسي في انفعالٍ كما كنت في هذا اليوم. ولكن استخفاف أولاد "عم شحتة" هو الذي أثارني، وكان من الممكن للأمور أن تمر بالاعتذار. لم أرَهُم لمدة ثلاثة شهور في الحارة ولسنواتٍ عديدة كانوا حينما يرون والدي خارجًا من المنزل يجلس أحدهم على الكرة خشية أن يراه والدي فتكون الطامة الكبرى وطلقات النيران التي تُنذِر بما هو أسوأ.

عشنا في الحارة ثلاثين عامًا يلفنا الصمت بعد هذه الحادثة التي كادت أن تكون مجزرة، اللهم إلا من عراكٍ كاد أن يقتل فيه أحد أخوالي شابًا في الحارة أشاح له بيده. ولا أزال أرى أولاد "عم شحتة" بعد ثلاثين عامًا نسلم على بعضنا البعض في صمتٍ وبحركة من العين وأقصى ما نفعله هو هَزُّ الرأس. كذلك أراهم يتحاشونني وخاصةً لما صرت إليه من مكانةٍ ومنصبٍ في إحدى الشركات الصناعية الكبرى في المعادي وبما قمت به من شراء نصف مباني الحارة تقريبًا بما في ذلك بيتهم القديم نفسه.

أنظر إلى هذه الأحداث كأنها تمر أمامي اليوم وكأن لسان حالها يقول: "لا تدوم إلا المعاملة الحسنة بين الناس وحسن الفعال"..

سلسلة فالصو

الوقت: الساعة الرابعة عصرًا. الشمس التي كانت تلهب المكان في آتونها بدأت في لمِّ أثوابها النارية من كل مكان لتترك لظل العصاري الخطو والتجول بأقدام ثابتة في المكان.

القعدة أمام باب البيت ترد الروح كما يقولون في هذا الوقت. الحوارات تأخذ في الازدياد ساعدَ عليها نسمة الهواء التي تداعب الجالسين. أقف هناك وفي كفي سلسلة فالصو بستين قرشًا اشتريتها لها. أضم عليها أناملي السمراء كما تحتضن الفرخة صغارها في خوفٍ عليهم. أخي "فهيم" والذي يكبرني بعامٍ يُحاوِل أن يفضحني بصوتٍ عالٍ متعمدًا ذلك أمام أبناء وبنات خالي الأكبر الذين يفترشون المكان أمام البيت.

- إيه اللي في إيدك دا يا "حسني"؟

أحاول أن أدفعه بيدي وأنا أحاول إخفاء السلسلة عن نظرات الآخرين. نظرت إلينا ابنة خالي الكبرى وهي تتساءل عن سبب هذا الشجار الطفيف، فقلت وقد غلبني الخجل:

– مفيش حاجة..

انبرى أخي "فهيم" كالحقنة وهو يغيظني:

– شاري سلسلة لـ "ريم "بمناسبة عيد ميلادها.

ضحكت ابنة خالي الكبرى حتى كادت أن تقع على الأرض وهي تجذبني وتنظر إلى يدي وتقول في تدلُّلٍ غير معهود فيها:

– ربنا يخليك ليها وتكون من نصيبك قادر يا كريم.

لم أدرِ إلا والدم يندفع في عروقي وأذني لأجدني غارقًا في عرَقٍ غزيرٍ وعيناي تنظران إلى الأرض وكأنني أريد أن أختبئ فيها.

خرجت "ريم" وقد ألجمتها المفاجأة وتدفَّق الدم في وجهها وهي تنظر إلى السلسلة في يدِ أختها الكبرى، ثم جرت إلى داخل البيت في عدوٍ سريعٍ. قطع وصول ابن خالي الأكبر "عثمان" المشهد وأنقذني مما أنا فيه وهو يدخل إلى صالة المنزل ويطلب الغداء وكوب الشاي بعده قبل أن يعود للعمل في الزراعة.

ظللت على حالي وارتباكي رغم مداعبة "عثمان "لي حتى خرجت علينا "ريم" وفي كفِّها بضع أوراق وأقلام ألوان لتطلب منِّي أن أرسم لها ورودًا في ثلاث لوحات تعلقها في حجرتها. تركتني ودخلت إلى المنزل

العريض الرطب لتعود بعد نصف ساعة وقد زينت رقبتها سلسلتي الفالصو. تطلعت إليها صامتًا وأنا ألوِّن ذيل العصفور الواقف بجوار الورود في اللوحة وشبح ابتسامة هناك على شفتي وأنا أبدأ في رسم اللوحة الثانية وهمسات الفرح في صدري تتجاوب لارتداء "ريم" السلسلة التي اشتريتها لها بمناسبة عيد ميلادها وصوت أم كلثوم يخرج من المذياع في المنزل العريض.

"عم عمار" وحكاياته

يجلس على رأس الحارة بشعره الأشيب كأنه تاج نحت من أجله ومن أجل إظهار عظمته وجلاله في بلاط يمتد به مثل بلاط ملوك الماضي العظام. كنا نناديه "عم عمار" نضحك حين يكلمنا ونلمح طيبته التي تخرج مع كل كلمة يقولها لنا. يحكي لنا عن أيام زمان وعن عفاريت الطالبية ومعاركها، وعن الفتوات الذين شاهدهم، وكيف أنه كان سيقتل من أجل كلمة قالها في إحدى هذه المعارك "لولا ستر ربنا".

حكايات "عم عمار" مثل الآثار، كلما قلبتها وجدت فيها دائمًا الجديد والجديد عن الناس وكلامهم عن الدولة وطريقة حكمها وعن العادات الاجتماعية.

جلسة "عم عمار" على رأس الحارة محط أنظارنا، وحينما لا نجده نذهب إلى منزله وننادي عليه ونطمئن عليه ونترك له الفاكهة التي كان يحبها، وكنا نحضر له منها ما يقدر على أكله وهو بدون أسنان تقريبًا.

ذات مرة حكى لنا قصة مقتل شيخ الغفراء "صادق" الذي كان يلسع الناس بظلمه وجبروته وافتراءاته. قيل إنه حدثت هناك مشاداة بينه وبين أحد الرجال من الجيزة على مقهى الطالبية أمام شركة البيبسي كولا أو ما صار الآن يُعرف بشركة البيبسي كولا، يتوقف "عم عمار" ليقول:

- الظلم وحش ياولاد، والعند يولِّد الكفر.

يكمل حكايته ويقول كيف أنه سمع دوي الرصاصات شديدة في صراخها كأنها الأفاعي التي نزلت بوادٍ فيه فئران الدنيا وهي شديدة الجوع والنهم ويضيف بأن الرصاصات عوت في المقهى واخترقت كل شيء كطوفان النار الغادر.

يسرح ببصره بعيدًا وكأنه يقرأ التاريخ أو يستجلي جوانب حكايته من ذكريات طويت في تلافيف عقله، ثم فجأة تلتمع عيناه وهو يشرح لنا بأن الطالبية لم تنم في هذه الليلة وأن زوجة المقتول شيخ الغفراء كانت تولول طوال الليل على موته وعلى فقدها لسندها الذي كانت تعتمد عليه في كل شيء. حضرت الشرطة وتم عمل التحقيقات اللازمة وانفض الموقف ولكن الرصاصات لا تزال ساكنة في حائط المقهي تشهد بموت أحدهم وجرح ثلاثة آخرين.

يصمت "عم عمار" وعيناه تمسحان وجوهنا وتعتصران ردود أفعالنا ونحن ننظر إليه مشدوهين مفتوحي الفم. يمد يدين مرتعشتين إلى كوب الشاي ليرشف منه رشفة، ذلك الشاي الذي يحبه ثقيلاً كأنه الحبر ولا يرضى عن غيره بديلاً.

نلتف حوله ونستزيده من الحكايات وهو يضيف إلى الحكاية وصفًا على وصفٍ ولمسة إلى لمسة كأنه يرسم لوحة من الفسيفساء الجميلة ونحن نراه وهو يبدعها حتى تنقضي الساعات ونحن نخالها كالدقائق.

نفترق و "عم عمار" يغالب النعاس كأنه أخرج كل طاقته في حكاياته وفي حاجة إلى نوم جديد يجدد له شباب ذاكرته. نراه وهو يحرك مؤشر الراديو إلى إذاعة أم كلثوم ليسمع أغنياتها ويتمايل طربًا لها ولشدوها الجميل ومرات عديدة رأيته غلبه النعاس وصوت أم كلثوم لا يزال يتردد في صوتٍ هو إلى الخفوت أقرب، حيث كان لا يحب الصوت العالي في أي شيء.

ذات صباح استيقظنا على صوت صرخات مكتومة من منزل "عم عمار" لم نكن ندري ونحن صغار بأي شيءٍ، فقط رجال الحتة يندفعون لمعرفة سبب البكاء والنحيب. عدنا من مدراسنا بعد الظهر لنجد أن كرسي "عم عمار "اختفى ومعه الراديو خاصته، شادر العزاء ممتد بطول الحارة وأولاده يتلقون العزاء برؤوس منكسة. بكينا لغيابه ووفاته وتذكرنا مداعباته لنا دائمًا وحكاياته التي لا تنتهي أبدًا.

خيم الفراغ الحزين علينا ووجدنا حياتنا مليئة بالفراغ الذي خلفه فينا الرجل الطيب ونحن نتوق إلى حكاية من حكاياته تأخذنا إلى الماضي الجميل كما كان يسميه والدي وهو يقبل "عم عمار" على رأسه قبل أن يتركه وينصرف.. فهل سنجد شخصًا آخر مثله ينقلنا إلى الزمن الماضي، لا يزال هذا السؤال في حاجة إلى إجابة.

أبريل 2017

منامن وصورة الأسد

الساعة العاشرة صباحًا، تنهض "منامن" - اسم الدلع لمنى- من نومها لتقبل عليَّ وأنا على ترابيزة السفرة، تبتسم إليَّ كعادتها وهي تفتح باب الثلاجة الثقيل إلى حدٍّ ما عليها لتحضر عصيرها المفضل وزجاجة الماء الخاصة بها. تجلس إلى جواري، تدفع شعرها إلى الوراء وهي تتخذ سمت الجد وٌالاهتمام، تمد يدها الصغيرة إلى كراسة الرسم أمامها وهي تفكر كما هو بادٍ على حركاتها البطيئة ونظراتها حينما تفكر في شيء بعمق وتدبر. تفتح الرسم على صفحة فيها خطوط ورؤوس كثيرة، ثم تلوح منها التفاتة إلى وهي تقول:

- بابا، عايزة أرسم أسد..

أغمغم بدون كلام، فتقوم برسم رأس أو رأسين، ثم يبدأ عليها التبرم والغضب الذي أحس به يغلي في داخلها، يغلي وراء جديتها التي تكبر

سنها بمراحل، أخبرها بأن رسم الأسد سهل للغاية، فقط نبدأ برسم رأس وحولها هالة من الشعر لنرى بعد ذلك الأسد وله زئير. ضحكت على كلمة زئير هذه، فضممتها إلى صدري وأنا أقبِّل جبينها وأدعو لها بالصحة والسلامة. أخذت "منامن" بأناملها الرفيعة في رسم صورة الأسد لنراه سويًّا وهو يتشكل أمامنا بل نحس به كما نراه في التلفاز.

صرخت "منامن "من الفرحة وهي تنادي أمها لتوقظها وتبشِّرها بنجاحها في رسم صورة الأسد التي لا تُصدِّق أنها فعلتها. سرت عدوى فرحة "منامن" إلى صدري لتزيل عنه بعض القتامة التي رانت عليه وغطته منذ أن أصاب "منامن" داء شلل الأطفال في إحدى قدميها، فلتت مني دمعة وأنا أتابعها وكلي اهتمام بصورة الأسد الذي أخذت رأسه تتلون باللون الرمادي الفاتح. "منامن" تحتسي رشفات من عصيرها المفضل، عصير البرتقال الطازج وأجواء رضاها عن رسمها تملأ الصالة التي نجلس فيها وأمها معي تبارك رسمها وتساعدها بتوجيهاتها على إضافة باقي عناصر المشهد من حارس للأسد وأطفال حوله إلى غير ذلك من مشاهد لتكمل لوحتها والتي وعدتها بوضعها في برواز في الصالة.

خرجت الصورة حلوة ليتدفق في صدري بصيصٌ من راحةٍ وهدوءٍ لرضاها عن شيءٍ فعلَتْهُ، تصاحب كل هذا دعواتي لها بدوام الحياة السعيدة في قادم الأيام، إنها ابنتي الصغيرة آخر العنقود، "منامن" كما اعتدنا أن نناديها كلنا ونحن نغدق عليها حبًّا وحدبًا ينسيها ما هي فيه ونبارك فيها شجاعتها وقدرتها على مواجهة حالتها.

المقابلة

الساعة العاشرة صباحًا. يخترق ضوء الشمس شيش النافذة خلف مكتبي في البناية التي تطل على الفيلا المجاورة بجوار شركتي، الفيلا متواضعة ولكنها تجذب الناظرين كجنة ورافة الظلال يتراءى من وراء أشجارها الوارفة الظلال الأطفال الصغار لأبناء أحد المديرين الخواجات الذين يعملون في إحدى شركات البترول الكبرى في المعادي. شكله صغير السن وأولاده يمتلئون بالفرح والسعادة ويستغلون المكان في كل شيء. أراهم من خلف شباك مكتبي فأحسدهم على النعمة التي يرفلون فيها وألعن أنياب حظي الذي ألقى بي في أتون السكن الذي أنا فيه حيث دوامات الصداع والصراخ لا تنتهي: صراخ السيارات، صراخ الأطفال، صراخ الجيران، حتى صراخ القطط والكلاب في قلب الليل. إنه يومٌ جديدٌ.. إنه يوم الأحد، أكره في حياتي الوظيفية أيام الآحاد وأيام

الخميس؛ ففي كلاهما تتراكم الطلبات وتتوتر الأعصاب. اليوم هو بدء المقابلات لوظيفة سكرتارية السيد رئيس عمليات الشركة. الكل في تحفُّزٍ شديدٍ؛ لأن رئيس عمليات الشركة شخصية حديدية يصعب التحدث معها فلا تكمل معه دقيقتين إلا وتجد الأسئلة النارية تلهب ظهرك متى وأين وكيف ولماذا لم يحدث هذا ولماذا لم يحدث ذاك. أعتقد ويعتقد كذلك الجميع أنه لم يُخلَق للدعابة رجل ناري، بمجهوداته وأفكاره زادت أرباح الشركة 10٪ في العام الماضي بفضل توجيهاته وإصراره على النجاح ومرتقب لها زيادة مماثلة خلال هذا العام. الكل يعمل له ألف حساب وعجلة الإنتاج بمصانع الشركة الثلاث تحت إشرافه، جداول الصيانة المعقدة خلف مكتبه. إذا حدثَ عُطلٌ غَيرُ مبَّررٍ أحضر الشخص المخطئ إلى مكتبه لمتابعة الموقف معه بنفسه. كتب عنه زميله الإنجليزي من علماء الإدارة بلندن بأنه نموذج للمدير القوي الحاسم والحنون في الوقت نفسه.

دق جرس مكتبي في الدور الثاني، إنها المرشَّحة الأولى للمقابلة هذا اليوم، عشر دقائق ووجدت رجلُ الأمن يدخل إلى مكتبي في شِبه توتر علمت سببه في حينه حينمت ارتفعت عيناي من على الورق الراقد على مكتبي والخاص بهذه المرشحة الأولى. تلاقت عيناي بعينيها بعد أن مسحتها كمماسحٍ ضوئيٍّ لا يترك شيئًا وجدت ابتسامة على شفتيها وهي تقول: "رنا عبد التواب".

- تفضلي..

نظرت إلى الباب الموارب خلفها وأغلقته، زاد إحساس القلق الداخلي، فإذا بها تقول لي وبصوتٍ خافتٍ:

- ممكن أدخن؟

أجبت: تفضلي وكلي قلق من الموقف برمته.

أشعلت السيجارة وأخذت تنظر إليَّ في بادئ الأمر بنظرات ثابتة وكأنها تحاول سبر أغواري ثم بعد النفس الخامس من سيجارتها تحركت قليلاً على مقعدها ووضعت ساقًا على ساقٍ.

هنا فقط تكهرب الجو؛ فلا أدري ما يحدث؛ فأمامي فتاة شقراء ذات ملابس قصيرة تضع ساقين عاريتين للعيان.

بدأت حبات العرق تأخذ طريقها إلى جبيني فأبعدت ذبابة غير موجودة عن وجهي.

- الاسم: رنا عبد التواب محمد..

- أيوه يا افندم..

- الشهادة: بكالوريوس تجارة.

- تمام يا افندم.

- الخبرات السابقة، مش واضحة.

هنا مالت بنصفها العلوي عليَّ، ووجدت أن نصف صدرها الأعلى يشارك في الإجابة إلى جانب شفتيها المكتنزتين.

لم أدرك كلامها بل كانت عيناي مثبتتين على شيءٍ آخر.. هنا فقط أدركت أن الأمور لن تسير هكذا.

سألت بلهفة : معكِ أصول أي أوراق؟

– نعم يا افندم.

جاءت الكلمات بطيئة ومتباعدة.

أخذت أصول الأوراق وانتفضت كمن لسعته عقرب وأنا أهرول إلى ماكينة التصوير بنفسي في الصالة، وطلبت من عامل البوفيه أن يدخل عليَّ بمشروبين بينهما فقط خمسُ دقائق بالعدد.

جاء فنجان القهوة ووضعه بالقُرب من طرف مكتبي، وضعته حتى يكون في مجال حركة يدي. وعندما دقَّ على الباب بالمشروب الثاني أشرت بيدي بالدخول، وهنا لمست فنجان القهوة الصغير لينسكب على الأوراق أمامي، انتفضت من مكاني وأنا أنادي على عامل النظافة بالحضور لإصلاح الأمر ومسح ما انسكب من القهوة وقد أجدت تمثيل دور القلق الحقيقي وكهربة المكان والخوف على المستندات التي على مكتبي.

هنا رنَتْ بعينيها إليَّ وقالت:

– دلق القهوة خير.

هنا فقط أدركت عيناي فخذيها الواضحين للرائي، نهرت عامل البوفيه أن يسرع بتنظيف المكان، ووجدتني أمِدُّ يدي إليها وأقول لها:

– أستاذة رنا هنتصل بيكي إن شاء الله.

وجدتها تقتح فمها في دهشة، ثم تمالكت نفسها وهي تنهض وتترك لي كارتًا شخصيًّا يحمل رقم هاتفها وعنوان بريدها الإلكتروني.

لم تكد تخرج من صالة الدور وأنا أعلم ذلك بنهاية صوت اصطكاك كعب حذائها بأرضية الصالة، إلا ووجدتني أتنفس الخلاص من وجودها برمته وبخاصة أن سيرتها الذاتية المقدمة للوظيفة لا تحوي إلا النذر اليسير من المعلومات ولم تقدم خبرات ذات بال.

حمدت الله في نفسي على السلامة وأنا أردد في نفسي إن النساء فتنة وهرولت إلى دورة المياه أبلل وجهي بالماء الرطب ورأسي كذلك لعلَّ النار التي أشعلَتْها "رنا" منذ دخولها مكتبي تنطفئ.

أبو شنب بقدونس

المساء في فصل الشتاء طويل، والحكايات أطول. القعدة دائمًا في الحجرة الداخلية من المنزل حيث تعد أمي "نعمات" كل شيء لزوم هذه الجلسات الطويلة، فنجد خالي الأكبر "عبد الغفار" وخالي الأصغر "شديد" وأحيانًا خالي الأوسط "سرور". تطهو أمي الطعام من مختلف الأنواع وأبي "حمادة" في جلبابه المقلم وطاقيته الصوف التي تتحرك مع حركات رأسه يمنة ويسرة ووجهه الأسمر النحيل وملامحه المستسلمة.

تبدأ الحكايات بعد العشاء وهنا كانت القصة من كلام خالي "شديد" الذي حكي بأن زميلاً له في العمل يقطن منطقة نائية كان لا بُدَّ أن يمر كل يوم في طريق عودته بمنطقة مهجورة مقطوعة وكان حريصًا على العودة من عمله دائمًا في أول الليل حيث "الرِّجل ماشية" تحاشيًا من أن يلتقي بشبحٍ ما أو ما يحكي عنه في هذه المنطقة من أحداثٍ. لِذا كان لا يسهر

في العمل لأي سبب كان حتى جاء ذلك اليوم الذي فوجئ فيه بجردٍ ضَروريٌّ إتمامُه في العمل فبقي في العمل حتى منتصف الليل.

أضاف خالي وكل عيوننا تستقطر الكلام من ملامحه وحركاته وسكناته بأن زميله رجع من عمله في هذه الليلة وكل حكايات الأشباح في رأسه وبخاصة حكاية "أبو شنب بقدونس" الذي سمع عنه. فجأةً وجد شخصًا يسير بجواره ويشاركه الكلام عن حال الدنيا وعن أحوال المناطق المقطوعة وعن العفاريت، لم يستشعر الخوف منه. حينما التفت إليه على غرة وجد أن شاربه كثيفٌ، كثٌّ وغليظٌ بشكلٍ مُفرط وملامحه غريبة.

مال عليه وهو يقول:

- بيقولوا بأن هناك أبو شنب بقدونس، عفريت بيطلع لكل واحد.

فالتفت له والكلام لا يزال على لسان خالي ينقله عن صاحبه، وقال له الشيطان:

-زي دا..

وأشار إلى شاربه الكث الغليظ وعيناه تبرقان.

توقف تنفسنا ونحن نسمع خالي "شديد" في حكايته وإذا بنا نستعجل بنظراتنا رشفه للشاي حتى نعلم ما حدث في هذه البؤرة من الأحداث والتي تجمَّد الدم رعبًا في عروقنا لسماعها. أضاف خالي "شديد" بأن زميله أخذ يجري في الظلام وضحكات العفريت تتردد في

أذنه كأنها تجري معه ولم يتوقف عن العدو حتى وصل إلى منزله وأخذ يهوي بقبضتيه على الباب حتى انفتح ليختفي بحذائه وملابسه تحت اللحاف وهو يرتجف رعبًا.

يضحك خالي "شديد" وهو يقول:

- العفريت رعب الواد اللي قعد أسبوع يخترف ويهلوس.

نكس والدي رأسه الصغير إلى الأرض وهو يهزها يمنة ويسرة ويقول:

- الخوف هو اللي عمل فيه كدا. كويس اللي ماضرهوش الشيطان.

حل الصمت على المكان اللهم إلا من صوت رشفات الشاي وكل منا يرسم الموقف في مخيلته وأنا أزداد انكماشًا على نفسي ملتصقًا بأمي التي أحست برعبي فضمتني إليها وقد غطتني بشالها الأسود الثقيل وهي تقرأ الفاتحة على رأسي الأسمر الصغير.

سبتمبر 2017

اعتداء ابنة عمران الفكهاني

كانت حدود السوق هناك على المدى البعيد أمام أعيننا، كنا نذهب إليه صباح كل يوم أحد وثلاثاء من كل أسبوع، وكانت أمي تصحبني أنا وأختي إلى السوق في بداية اليوم، ومع كلٍّ منا قطعة من الحلوى نقبض عليها بين أصابعنا بعد أن اشترتها لنا من "عم إسماعيل" بائع الحلوى على أول السوق، ونظل نلعق فيها حتى تسيل على أيدينا وملابسنا عندما نصل إلى نهاية السوق. كانت أمي تتجه صوب حنفية المياه العمومية وتندس بين النساء بعد أن تتركنا عند خالتي "سيدة" بائعة الخضروات وتحضر لنا من الماء ما نشربه أولاً ثم نغسل به أيدينا وما نزل على ملابسنا.

كانت أمي تضحك فجأةً ثم تغضب فجأة ثم تغني فجأة وأحيانًا كنا نجدها تكلم نفسها فننظر إليها ونحتار، فتصمت ساعتها وتضمنا إلى صدرها الصغير وهي تتمتم:

– الحمد لله... الحمد لله.

لم يكن يأتي إلى منزلنا أحد إلا أقاربنا من البلد وجارتنا "أم منعم" زوجة البواب والتي كانت أمي تساعدها في كنس ومسح السلم مقابل جنيهاتٍ قَليلةٍ تحضر بها طعامنا وشرابنا كل يوم. كنا نلعب مع "منعم" طوال الوقت ونضحك عليه ونحادثه عن العفاريت والجن والشياطين التي تخرج من الحيطان وأبو رجل مسلوخة التي حكت لنا أمنا عنه مرارًا ونمنا نرتعد ألا يقبض بيديه الغاضبة اللزجة الساخنة على أرجلنا ورقابنا.

كانت أمي تعرج عادة حال خلال ذهابها إلى السوق على فرش "عم عمران" بائع الفاكهة، كانت هناك زوجته وابنته الضخمة التي كنا نخاف منها ونضحك في سرنا حين نراها، كنا نعتاد شراء الفاكهة التي مرت عليها عدةأيام وتغير لونها فنأكل منها الجزء السليم ونضحك في أنفسنا ونحن نقول المهم هناك طعم الفاكهة وبعد اللسان نتان كما كانت تقول "أم منعم" حينما تتأخر عليها اللحمة ولايحضرها زوجها البواب.

ذهبت أمي إلى ركن الفاكهة الرخيصة وأخذت تجادل في السعر زوجة "عم عمران" وابنته تنصت للحوار وما هي إلا بضع كلمات حتى وجدت فجأة زوجة الفكهاني تسب أمي وتشتمها من غير داعٍ، لم ترد أمي عليها ولكن فجأة وجدت ابنة عمران ضخمة الجثة تندفع نحو أمي وتدفعها في صدرها وهي تصرخ، الأمر الذي جعل رأس أمي يرتطم بصاري عربة الفاكهة الخشبي، فصرخنا لصراخها، حدثَ كُلُّ هذا في ثوانٍ خاطفة،

امتدت يد ابنة عمران إلى أمي وجذبتها من شعرها فسقطت طرحة أمي على الأرض واختلطت بالطمي.

تجمع الناس وفضوا الاشتباك الذي حدث، ساعتها وجدت الدموع تطفر إلى عينيّ أمي ووجدتها تنظر إلينا وهي تلملم شنطتها البلاستكية وتسير وقطرات من الدم تهبط على طرف جلبابها الأزرق وهي ترفع يدها إلى السماء وتقول:

- يا رب على كل مفتري وظالم.

رجعنا إلى المنزل واندفعت أمي تغسل رأسها بالماء ودفعتني أنادي على "أم منعم" زوجة بواب العمارة التي جاءت ووضعت الكثير من البن على رأس أمي وهي تسألها عن سبب هذا الجرح وأمي لا تجيب بل تقول في صوتٍ يختلط بالدموع التي تجري على خديها:

- حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله ونعم الوكيل..

كانت تردد هذه العبارة عدة مرات في الصباح والمساء وفي الفرح وفي الغضب. لمحت أمي الغضب والانكسار في عيوننا الصغيرة، فاندفعت في ركن الحجرة الصغيرة التي تسميه المطبخ وهي تقول:

- يلَّا الغدا جاهز يا حبايبي.

جلسنا على الأرض، ونحن نأكل وأمي تنظر إلينا والدموع تترقرق في عينيها وتقول:

اللهم أهلِك الظالمين بالظالمين. أخذتُ أتناول قطعة من الخبز أضعها في فمي إلى اليمين تارة وإلى الشمال تارة فلا أقدر أن ألوكها ووجدتني لا أعرف كيف أمضغها، فبكيت وأنا أتذكَّر ما حدث لنا منذ وقتٍ قصيرٍ في السوق وسالت دموعي على خدي وأنا لا أعرف ماذا أفعل ولماذا يحدث لنا كل هذا؟ وأين أبي الذي تركنا وحدنا؟ كلها تساؤلات رجَّت رأسي الصغير ووجدتني ألفظ اللقمة من فمي وقد غطاها طعم المرارة الكئيب.

موقف وقدر

من الأمور المجربة عندي هي أنه كلما أهمَّني أمرٌ أسيرُ على الكورنيش وأنظر إلى الماء ألقي عليه أحزاني وأتراحي لعلي أجد فيه الأمل لغسيل أوجاعي وتنتهي في الغالب لحظاتي هذه بالتخلص من الكرب الذي أنا فيه. إنها أخريات سنة 2010 والوقت في الخريف حيث نسمة الهواء تميل أحيانًا إلى البرودة فتستشعر فيها قرب حلول فصل الشتاء الذي يهز كل شيء ويملأ كل شيء بالرعب من برده القارس الشديد وبخاصةٍ أولئك الذين لا يرون حصيرة الصيف التي انكمشت وتقلصت.

الدموع تملأ العين وتملأ القلب وتملأ كل شيء، إنها ذكرى جنازة أمي وهي تشدني إلى أعماقها كدوامة سريعة الدوران حادة الجريان وأنا على حافتها، الكل ضبابي إلا من خطوط ضوءِ آخر النهار وانحسار الضوء عن الأشياء والإحساس بدخول العتمة على كل شيء كأن الأشياء

تستعد للدخول إلى نفقٍ مُظلمٍ مدلهم كئيب. مَن يخشى الليل يخبرني.. رفع الكل يديه عاليًا في السماء وكنا ساعتها نجلس في شرفة صديقنا خالد الذي تزوج حديثًا، رفع الكل على غير ترتيب إصبعه، وكانت الرؤوس قد طوحتها الأحزان والآلام والقلاقل والعذابات التي يلهبها الحب وتلهبها أحداث اليوم والأسبوع.

كانت الساعة تقترب من السادسة مساء وكنت أجلس بمفردي على أحد المقاعد التي تتواجد على ندرتها بالقرب من الكورنيش وفجأة جاءت فتاة لم ألحظ ملامحها وجلست إلى جواري ورأيتها تخرج من حقيبتها والتي هالني كبرها، شيء ما تشربه ثم تتأمل النيل في موضعها دون أي التفاتة إليَّ، ووجدتني بعد فترة تسيطر على حركاتها وأفعالها كما هي عادة الإنسان الذي يكون في هَمٍّ وتحاول نفسه السعي للالتفات للآخرين من أجل التسرية عن النفس من جانب أو من أجل الابتعاد النفسي عن الحالة التي هو عليها من جانب آخر. وجدتني أنظر إليها، ثم أحاول أن أتناساها وأقول دع المُلك للمالك، فإذا بها بعد فترة وجيزة تخرج مذكرة صفراء اللون وتأخذ في تقليبها ثم تلوي عنقها ذات اليمين وذات الشمال على غير عادتها التي شاهدتها عليها وتزوم في نفسها أو تترنم بكلمات لا أفهمها وبدأت بعد هذا النظر إلى الأمام ثم الابتسام الخفيف والكتابة على نحوٍ سَريعٍ وخاطفٍ وكانها تنقر الأرض نقرًا كما ينقر الطائر الأرض بحثًا عن الطعام الكامن تحتها.

ظلت تكتب على الصفحات التي تراصت عليها الكلمات وأنا لا

أستطيع أن ألوي عنقي تجاهها في هذه الأثناء رغبة في اعتزال الأمر من جانب، ورغبة في عدم التورط في أي أمر من الأمور التي قد تجر على إلتزامات في المستقبل القريب أو البعيد .

ظلت الأمور على هذه الحالة قرابة نصف الساعة، ثم وجدتها تلتفت إلى وهي تقول:

– الساعة كام حضرتك، لا مؤاخذة نسيت ساعتي.

نظرت إلى معصمي وضحكت وقلت لها:

– الساعة في البيت، نسيت أنا كمان الساعة والموبايل، لكن ممكن نقول الساعة ستة ونصف أو سبعة إلا ربع.

غممت بشيء لم أتبينه، وأكملت كتابتها التي طوت فيها صفحات عديدة حسب تخميني، أحسست بعد سؤالها أنها تحاول التقرب منِّي أو تحاول جس النبض كما هو معهود من الفتيات، ولكنني آثرت الصمت وعدم التمادي واستغلال الفرصة ورجعت ثانيةً أغوص في جنازة أمي وكيف أنني هبطت إلى أعماق القبر في مقابر أبي الهول الضيقة، حيث تشعر بالاختناق بالداخل، دخلت القبر شبه زاحف وأنا أحل عليها كفنها وأوسِّدها التراب كما يقولون ودموعي تملأ وجهي وتملأ قميصي وتبلله.

أفقت على أصابع تشير إلى وتسألني عن أسرع مواصلات إلى الهرم، حيث أنها على ميعادٍ عاجلٍ بعد حوالي ساعتين، وتريد الوصول سريعًا. وجدتني أقول لها:

- إنتي في سكتي وممكن تيجي معايا إذا ماكانش في مانع.

ردت باقتضاب:

- متشكرة خالص.

مرَّ بعض الوقت لا أدري مداه وأنا أحاول أن أصل الكلام ثانية ولكنني وجدتها تنهمك فيما تكتبه وأنا ألتفت لوجهها بالكلية وأرى شعرها الملموم ينسدل على كتفيها ووجدتني أرى في جسمها ملاحة على صغره، به امتلاء واضح وأصابعها قصيرة وبيضاء وخفيفة الحركة.

همست لها في صوتٍ خافتٍ إن كان من الممكن أن ننطلق إلى الهرم، فطاوعتني ولملمت أشياءها على عجل ونهضت معي، وأخذنا نعبر الشارع وفجأة وعلى إثر انطلاق سيارة مكروباص بجوارها وجدتها تقبض على يدي في ذعر، أمسكت يدها بالتبعية كرد فعلٍ غير مرتب وأنا أطمئنها وأسب سائقي الميكروباص وغبائهم في هذه الأيام.

ركبنا التاكسي بعد مجادلة بسيطة منِّي مع السائق على الأجرة ووجدتها تشير عليَّ أن أركب في المقعد الخلفي وتركب إلى جواري وألصقَتْ نفسها بجواري، توترَتْ حركاتي وأنا أراها تبتسم في وداعةٍ وتقول بأنَّ عليها أن تصل إلى الجريدة مبكرًا؛ لأنَّ هناك لقاء مع مدير التحرير وعليها أن تنهي أمرَ عملها اليوم بعد مماطلة منه وتلميحات لم تعجبها، وجدتني أتبرع بعرض فكرة انتظارها وقد التهبت المسافة بيننا بعد أن وضعت يديها على يدي وكأنها بهذا تحاول أن تذيب ما بيننا من توتر.

كانت حركتها عفوية وتلقائية تصاحبها الابتسامات التي تعزز احتياجها للحب وللمسة الرجل، وجدتني أسحب يدي على استحياء دونما أن أصدمها أوأجعلها تغضب لأنني وجدت سائق التاكسي يقلق لاقترابنا المريب.

تبادلنا قبلاتٍ خاطفةً في زيارتنا الثالثة بعد صمت مرتين، لا تحدثني عن تبرعاتي لي بتوصيلها إلى العديد من الجرائد التي تطلب محررين حتى يئست من كل الجهات وصرخت:

– كلهم عايزين جسمي، أعمل إيه؟

بعد ثلاثة أشهر وبعد أن كُنَّا منفردين في حديقة الأزهر، وبعد أن لمست بيدي أماكنَ معينة من جسمها على تململ منها وقلق واضحين، وجدتني فجأة أطلب منها الزواج طلبًا للعفة ومَنجاة من الوقوع في الخطأ، وبخاصة وهي تعرف عنِّي كل شيء وأنا أعرف عنها كل شيء كذلك .لم يمضِ شهران إلا وهي في منزلي ونحن نجلس نتذكر تلك الأيام ونضحك وهي تقول لي في حب ومودة طاغية:

– حافظت عليَّ وربنا حافظ عليك ورزقك ونجاك، تعيش لي دومًا يا زوجي الحبيب.

ضحكت في نفسي وأنا أتذكر دعوتي لله سبحانه وتعالى بالرزق حال أن نويت الحفاظ عليها والزواج بها، وكيف أنني نجحت دون الكثيرين في وظيفة في إحدى الشركات وبعدها أحبَّني رؤسائي وقدَّروا لي أمانتي

وكيف أنا الآن في بحبوحة من العيش ونحن ننتظر "سعيد" ابننا الذي أصبحنا ننادي به بعضنا البعض "أم سعيد، أبو سعيد" ليل نهار، ابننا الذي تشكل في حبنا وقربنا معًا على سنة الله ورسوله.

هنا فقط سرت الدموع من عيني وأنا أتذكر كلمات أمي الذهبية والتي كانت دائمًا تقولها لنا في كل الأحوال حتى صارت جزءًا من طعامنا اليومي الذي نزدرده، وشرابنا الذي نتجرعه، وحديثنا في السراء والضراء عن الحلال والمشي السليم والبعد عن السير البطال، كما كانت تردد دائمًا، سرَت الدموع من عيني وأنا أداريها بيدي وأقوم لأنظر من شباك الشقة الصغيرة المطل على المنور وأقول في سري:

- ربنا يرحمك يا أمي ربنا يرحمك..

عم نصار والشارع الثعباني

الشارع ضيق وطويل وممتد وفي منتصف الشارع تقريبًا يوجد التواء عجيب يلحظه كل مَن يمر في الشارع ويتعجب لهذا الالتواء وكيف تمر السيارات من هذا الاختناق في بداية اليوم ونهايته حيث التكالب على المرور من هذ الشارع تجنبًا للاختناقات التي لا تزال جزءًا من جحيم شارع الطالبية الرئيسي. الشارع كأنه ثعبانٌ عجوزٌ لا يريد أن يموت بل يذكرنا بإحساسنا بالعجز حيال مكره الدفين ونهوضه في أي لحظة حال غضبه ولدغه لنا حتى نرتدع مما يغضبه هو ولا نعرف في الحقيقة ما يغضبه. الشارع غاص بالمنازل القديمة بعضها تهدم عند منتصفه حيث تتضح الصخور القديمة أو الأحجار الجيرية التي كساها الزمن بصمته فلا تبوح بشيءٍ بل سكتت وقد علاها التراب، بل أصبحت مرتعًا للأوراق وأكوام القمامة المختلفة تراها فتدرك الزمن وآثاره وزوال

الحال ولا تملك إلا أن تقول في نفسك وبصوت يكاد يسمعه الآخرون: "سبحان من له الدوام".

الشارع طويل ملتوٍ، يقطع صمته صوت انسكاب مياه مفاجئ من إحدى شرفات منازله حيث امرأة مهوشة الشعر تقذف بالماء في الشارع حسبما اتفق ولا تملك إلا أن تضرب كفًّا على كفٍّ وتدعو الله بالهداية لخلقه. لا تمر خطوات حتى ترى الشياطين الصغار وهم يقذفون بالكرة في حدةِ وغضبِ مَن يريد الانتصار وكسب الدوري هنا على أرض الشارع. دقات الكرة كأنها يدُ جبارٍ كبيرٍ ومفترٍ تهدم ما حولها ولا تريد لأي شيءٍ أمامها أن يبقى على حاله بل لغتها هي الدمار والدمار فقط ولا شيء غيره.

لا تكاد تمر خطوات أخرى إلا وتواجه دقات كأنها المطرقة على رأسك وأنت تواجه المحل الذي يصلح كراسي الأنتريهات يجدد لها حشوتها ويصلح من قوائمها، تسانده في ذلك أصواتٌ منبعثة من المسجل الذي يرقد بجواره ويقذف في فم الحارة بدق وخبط وصراخ وكلمات ضاعت معالمها في الضجيج كما تتوه الرمال في مسارب عمق الصحراء ولا تجد آثارها في لحظة أو طرفة عين.

الخبطات على رأسي عالية وأنا أدلف إلى المنزل وقد حملت لوح الغسل المصنوع من الفايبر جلاس على كتفي، لوح يغسل عليه الأموات الذين نراهم عليه للمرة الأخيرة ونودعهم بآخر نظرة قبل أن يطويهم الثرى ويتركون عالمنا الذي نشرب دم بعضنا البعض من أجله. أحمل خشبة

الغسل كما يدعونها كأنها ستارة تداري دموعي التي تهزني، لقد مات أخي الأكبر "عم نصار" كما كنا نناديه لقد مات كبيرنا والذي كان دائم البسمة تعلو محياه ضحكة الدهر وانفراج السنين رغم ما يعانيه من متاعب في الصدر من جراء إصابته بربوٍ قديمٍ. أحمل خشبة الغسل وقدمي تسوخان في أرض الحارة وكأنني أسير في رمالٍ تصل إلى منتصف ساقي ولدغات أصوات من فيها تنخر عظامي وتدخل إلى خلاياي وتزلزل كياني كله وأنا أقترب وأسمع صرخات مَن في الدار، صرخات مكتومة تودع من يرقد إلى مثواه الأخير وهي لا تقوى حتى على الحزن .

بعد أن انتهينا مرت الساعات كأنها المسامير، عدت إلى المنزل ولا تزال نفسي مشوشة بما رأيت وما عانيت وأنا أدخل إلى حجرتي وطعم التراب في حلقي وصدري ورائحة القبر في دماغي كأنها تنينٌ ضخم قد ضربني في مقتل. التراب قد غطى حذائي وعلق به وكأنه يستنجد به في مكان ما بعيدًا عن منطقة المقابر وهول ما فيها. داخل القبر الذي يلوح كفوهة تقذف بك في أتون منطقة أخرى الجثث متراصة هناك وقد تحلق حولها الذباب الأزرق الذي لا أدري كيف يدخل على الميت قبره ويدخل تحت طيات التراب ويصل إلى جسده. تساؤلات أخذت تنخر في رأسي وأنا أهوي على السرير باكيًا ألتمس نومًا لعلي أجد فيه الراحة من عذابات ساعات الغسل والدفن وآخر نظرة لوجه "عم نصار" الساكن الهادئ المسالم دائمًا وطيب القلب، ولسان حالي يقول: اللهم ارحمه.. اللهم ارحمه.

هند

الصخب في المكان. الساعة الثانية عشرة ظهرًا. تدفق الطلاب من الجامعة الأمريكية والأماكن المجاورة إلى المطعم يتزايد. أتخذ مكانًا جانبيًّا في المطعم. أحاول أن أركز في الكلمات التي سأرسم بها شخصية البطلة في هذه القصة القصيرة. البطلة عصية على الرسم. شعرُهَا الأسود الفاحم ترفضه، وكذلك لا تريد أن تعيش في بولاق الدكرور؛ فهي تفضل المعيشة في المهندسين. تحاول أن تحشر كلمات إنجليزية في حواراتها مع البطل ومع مَن حولها.

حاولت إقناعها بأن البساطة هي سِرُّ الحياة، ولكنها رفضت ذلك وأبت وظلت تناوشني على مدى نصف ساعة.

تيقظت على مُقدِّمَها إلى طاولتي، رفعت عيني إلى محياها صغير المعالم وكلماتها الخافتة المترددة:

- ممكن أقعد.

- أوي أوي تفضلي

الوجه صبوح والغمازتان على جانبي الفم حلوتان، والشعر الأسود الفاحم الذي ترفضه بطلة قصتي يندلح على جانب وجهها الأيسر ليترك لبقعة ضوء ترسم ملامح الوجه الملائكي الصغير الدقيق المنمنم.

رجعت إلى بطلتي غاضبًا منها وأدخلتها في دوامة من الألم المفاجئ من جرّاء سقوطها من سلم العمارة ليلتوي كاحلها وتوضع قدمها في الجبس لمدة ثلاثة أسابيع. أيضًا جعلت حبيبها يعكر عليها صفو حياتها ويسقيها ويلات الغيرة ونارها.

- حضرتك بتكتب؟

لسعتني الكلمات الصادرة عن الجالسة قبالتي لأرد:

- باحاول.. أهو الواحد بيضيع وقت.

في هذه الأثناء صرخت بطلة القصة لانشغالي عنها بل حاولت سبي وشتمي أو هكذا هُيِّأ لي الأمر الذي أرغمني على وضعها في السجن لمدة ثلاثة أيام لتطاولها على أحد ضباط قسم الشرطة ولم تخرجها سوى واسطة جاء بها حبيبها.

- حضرتك بتنشر، أنا مهتمة بالكتابة ومش عارفة أعمل إيه.

تواصل الكلام بيننا لنشرب مشروبين وليتناول الكتابة وأحوالها. في نهاية المطاف تركتني وقد أضافتني إلى قائمة أصدقائها على الفيس بوك.

هنا زدت فرحة على فرحتي فأفرجت عن بطلة قصتي وبدَّلت أحوالها من حزنٍ وغَمٍّ إلى فرحٍ ويُسرٍ، بل حاولت أن ألبسها ثوب العرس من شدة فرحتي لولا العراك الذي حدث بين خطيبها وابن عمها، نجحت بصعوبة بالغة في إنهاء القصة بكتب الكتاب لبطلتي رغم توتر الأجواء .

جاءت رنة خفيفة على هاتفي المحمول لأردَّ فإذا صوت من كانت معي على الطاولة يرد في استحياء..

ولأعلم أنها هند، وأنها في انتظاري غدًا في مكتبة البلد أمام مبنى الجامعة الأمريكية في تمام الساعة الخامسة ومعها محاولة أوَّلية لكتابة قصة قصيرة تريد رأيي الفني فيها هنا ضحكت بطلة قصتي في نفسها بل هُيِّئ لي أنها تقول.

– كاتبي العزيز الآن أنت تحب.. الحال من بعضه.

هنا فقط كنت أطوي قصتي الصغيرة سريعًا وبقايا ابتساماتٍ على شفتي وأنا أفكر في إرسالها لإحدى المجلات الأدبية بالقاهرة.

مارس 2017

حليم أبو قفا

كانوا ينادونه "حليم أبو قفا" وكانوا في ذهابه وعودته يقولون من ورائه: "أبو قفا جه أبو قفا راح". حليم أبو قفا رزقه الله بسطة في الجسم وضخامة في العضلات وشدة في البأس، إذا صرخ كان صوته كزئير الأسد تخشاه النساء قبل الأطفال ويحسدن زوجته على قوته وفحولته اللتين يشعرن بها في عنفوانه وفلتات كلامه وجحيم رده وشدة عناده.

كانوا يتحاشونه في المناقشات وكان هو نفسه يتحاشى أهل الشارع ولا يختلط بهم إلا لمامًا خشيةً أن ينالهم غضبه وانفلات قوته. ولكن ما باليد حيلة، حدث ما لم يكن مُقدَّرًا وحدث جدالٌ ما بين "عم بيومي" و "حليم" دفعه هذا الأخير بعنف شديد إلى الحائط ليرتطم رأس "عم بيومي" ويغيب عن الوعي غارقًا في دمه وينقل إلى المستشفى ليقضي يومين بها. لا أدري ماذا جرى في هذا المشهد الذي أراه الآن كما هو بعيني رأسي،

"عم بيومي" مرتطمة رأسه بالحائط ودمه ينزل وهناك من يحاول إسعافه وهناك عشرة شباب من أبناء الحتة وقد تجمعوا على "حليم" بالكراسي الحديدية من المقهى القريب يضربونه على رأسه وفي دفعات كأنها قفزات الموت ونوباته حتى تفجَّر الدم من رأسه وهو يعوي كالأسد الجريح حتى عالجته ضربه عنيدة من عصا "عم محمود" المنجِّد ليسقط على إثرها مغشيًا عليه في دراما ذكَّرتني بأفلام فتوات زمان.

لم نر "حليم" لمدة شهرين كاملين، وقيل إن رأسه أخذت عشرين غرزة وقيل أكثر من ذلك. المهم أنه كان يحضر مجالس الصلح التي عقدها رجال الشارع لمعاقبته على فعلته ب "عم بيومي" الذي لم يحضر بعد هذا الحادث لمدة ستة شهور ثم أصابته وعكة صحية شديدة لم يسطع جسده الضئيل على الصمود أمامها ففاضت روحه في اليوم الخامس من أيام شهر رمضان المعظَّم وقد تجاوز سن الخمسين بأيامٍ، مما ألهب أهل الحارة وأشعل غلَّهم فكل مَن بالحارة نسبوا وفاة "عم بيومي" لاعتداء "حليم".

لم يكد ينتشر خبر وفاة "عم بيومي" إلا ووجدنا شباب الشارع يحضرون الجنازير الحديدية ويستعدون للقيا حليم لتأديبه وتأنيبه لوفاة "عم بيومي". كان "حليم" في فتوته وجبروته فضرب اثنين من الشباب قذف بهما إلى الأرض بلا وجلٍ أو خوفٍ، ولكن الكثرة تغلب الشجاعة، فإذا بضربة خاطفة تصك صدغه ليترنح على إثرها ويحاول أن يتماسك، ولكن الضرب توالى عليه حتى سقط مغشيًا عليه وكبار الشارع ينادون بالتوقف وإلا مات في أيدي شباب الشارع.

بعد أسبوعٍ بالتمام، جاءت عربة نقل كبيرة وأخذت منقولات منزل "حليم" كانت هناك زوجته وأخوها فقط، وكان أولاده يبكون على خروجهم المهين من الشارع الذي وُلِدوا وترعرعوا في جنباته. كانت هناك طرطشات كلام بأن حليم في العناية المركزة من جراء هذه العلقة الأخيرة من شباب الشارع المغتاظ انتقامًا لوفاة "عم بيومي" الرجل الطيب.

لم تتوقف الحكايات عن "حليم" طوال السنوات الخمس الماضية التي تلت هذه الحادثة، وكان كبار رجال الشارع يتندرون بما تم فعله به وهم الذين صبروا عليه سنواتٍ وسنواتٍ ولكن غيبوبة "عم بيومي" كانت القشة التي قصمت ظهر البعير. ولا ندري الآن عما إذا كان "حليم" عاد لصلفه مرة أخرى في مكانٍ آخر بعيدٍ عن المنطقة أم أنه أصبح طيبًا أم أنه مسجون أم أنه لا يزال في المستشفى؟

التخمينات في عقول رجال الحارة لا نهاية لها ولكن الإحساس العام هو الراحة من عدم وجوده والسلامة في غيابه وبعده.

إيمان والثعبان الفأر

الساعة الثانية عشرة ظهرًا، حر الظهيرة يلهب في لسعه درجات السلم الحجرية الصفراء والحيطان في الدور الثاني المكشوف وغير المعروش والتي تستجير من جحيم الشمس الذي يحوِّل كل شيء من الطوب الأحمر إلى أسقف عشش الفراخ الطينية إلى كتلة من اللهب. الفراخ البلدي مدلاة اللسان من أجل شَربة ماء وذلك رغم مكوثها في أماكن الظل بالقرب من العشش الطينية التي انتشرت في حجرات الدور الثاني. القطط هي الأخرى تجثو في الظِل وتصدر مواء خاصًا كأنه صراخٌ مكتومٌ اعتراضًا على الحالة التي أصبحوا عليها.

أختي الصغيرة "إيمان" تهبط من على درجات السلم وهي تتأفف من الحَر وسنينه وقد تهوش شعرها، فأسرع إليها وأخبرها ألا تشرب الماء وألا تضعه على وجهها أو رأسها كما كانوا دائمًا يقولون لنا بأن هذا "غلط".

لم تكد تدلف أختي "إيمان" من باب الحجرة التي تواجه النازل من السلم وهي الحجرة التي توجد في أقصى نهاية المنزل وتمتاز بجوها الرطب إلا ووجدتها تصرخ بصوتٍ عالٍ ومسموعٍ:

-فار فار..

وجدتني بجوارها على الفور لأسألها عن الفأر الغريب الذي لا يأبه للحر ويزعجها الآن. أشارت إلى خلف الباب، فخبطت بقدمي على الباب لإخراجه وقتله بقدمي، فإذا بي أري مفاجأة لا يمكن توقعها؛ ثعبانًا يتلوى ويتحرك من وراء الباب، فصرختُ أنا في هذه المرة من هول ما رأيت ومخافة أن ينقض على كما أراه في "عالم الحيوان" يوم الجمعة وكانت صرخاتي فقط بكلمة واحدة:

- تعبان، تعبان، تعبان

ثوان ووجدت الأسرة كلها على رأسي وهم يسألون أسئلة عديدة وفي يد كل منهم أي شيء لقتل ذلك المتطفل ساعة القيلولة. الخبطات على الباب عالية وشديدة وسريعة تصم الآذان من أجل إخراج ذلك المتطفل وقتله، لم يجدوا شيئًا خلف الباب، فأشار أحدهم إلى المروحة الحديدية ذات الحامل الواقفة على مقربة من المكان وتكاد أن تكون ملاصقة للباب.. حرَّك المروحة فلم يجده وهنا أدرك أن الثعبان كمن في قاعدتها فأخذ عصاته وظل يضرب على القاعدة الصاج حتى وجده يخرج وهو يتلوى من شدة الانزعاج ويريد الهروب، فما كان إلا أن تلقفته العصي

حتى سكنَ، ولكن رأسه كانت حية، جاءنا صوتٌ عالٍ من خلفنا ألا وهو صوت أمي:

-لازم تموتوا الراس، أخطر حاجة الراس.

قتلنا الثعبان وكنا نخاف من أثر قتلته على البلاط؛ فغسلنا مسرح الحادثة بكل أنواع المطهرات الممكنة وعلى رأسها الجاز الذي نستخدمه في كلِّ شيءٍ.

كانت حكاية الثعبان الذي أطلقت عليه أختي الصغرى "إيمان" اسم "الفار" محل تندرنا طوال المساء ونحن جالسون معًا في الصالة بمدخل المنزل نحكي الحكايات ونضحك من القلب. كنت أضحك من قلبي وأنا أقبل رأس أختي "إيمان" التي ذهبت في النوم ورأسها على حجري وابتسامة ملائكية بريئة تلوح على وجهها الصغير. مسحت على رأسها وأنا أنظر إلى أمي وأدعو لها بدوام الصحة وبأن يحفظها من كل سوء ومن كل شر. كانت نظرات أبي وأمي لي كلها ود وحب لحنوي على كتكوتة الأسرة "إيمان" الشقية.

شنطة "منى"

الساعة السابعة مساء. أفراد الأسرة يجلسون في صالة المنزل في الدور الأول، أبي "حمادة" وأمي "شهد" وأخي الأكبر "فهيم" وأختي الصغرى "منى" نحتشد في صالة المدخل خلف الباب الخشبي تحوطنا حيطان عالية مشرعة كأنها الجبال تتسنم المكان وتملأ المكان برطوبة اختزنتها من مساءٍ باردٍ لطيفٍ. لون الطلاء الجيري الأزرق لم يعد موجودًا من آثار الرطوبة التي رشحت في حجرات الدور الأول وأكسبته رونقًا خاصًا، وبخاصة في هجير الصيف وحرِّه، حيث يتلقفك المكان برطوبته ورحابته مما يجعلك لا تتركه إلى أي مكانٍ آخر مهما كان الثمن.

باب المنزل الخشبي قديمٌ قِدَم البيت يلوِّح أمام الداخل للصالة في الدور الأرضي على مرمى البصر حوض تعلوه مرآة كم مرة تحطمت من آثار لعب الكرة الشراب التي كنا نتدافع بها في صالة المدخل في حميا مباراة

دائمًا تختتم بعلقة ساخنة إما لتحطيم شيء أو عراك فيما بيننا على نتيجة المباراة وكيفية اللعب.

صرخات الشمس وهي تغيب تتخبط مع صرير العربة الكارو لعم "وهبة" وهي تمر من أمام دارنا. عربة تعلوها أقفاص الفاكهة فارغة وقد كانت في الصباح الباكر ممتلئة بما لذَّ وطابَ. أبي منكس الرأس وهذا يدل على حزنه حيث كلما رأيته منكس الرأس أصمت ويصمت إخوتي ولا نتكلم قط لأننا نعلم بأن هناك حادثًا ما يهمه وعلينا أن نساعده بصمتنا وسكوننا.

أختي الصغيرة "منى" والتي نطلق عليها الزنانة تبكي أو تزن في تتابُع متواصل تريد شنطة جديدة للمدرسة وتتشبث بطلبها غير عابئة بمحاولات أمي لإسكاتها.

الغضب يلوح على وجه أبي وأمي تهدئ من روعه وبأن الشنطة "مش ضروري" ولكن الغضب أخذ من أبي مأخذه فإذا به يدفع على غير ترتيب يده لينسكب الشاي على الحصيرة ويجري ساخنًا تحت وابور الجاز الذي يزن هو الآخر مثل "منى". ينصرف قليلاً أبي عن حالته التي سبقت ويقص علينا حكايات أصدقائه في العمل وبخاصة زميلة الذي يعمل معه ويعيد على سمعنا نفس الروايات القديمة مرة أخرى وهو يضحك ونحن كذلك. ويصوِّر دائمًا نفسه بأنه يقتحم مكتب أي مدير ويشرح وجهة نظره وبأن الله دائمًا ينصره ويحفظه لأنه يتق الله سبحانه وتعالى ولا يخشى في الحق لومة لائم.

زايل أبي حنقه بسبب شنطة منى ومرت ساعتان لنجد بابنا يدق وإذ

بي أجد خالي "عبدالغفار" داخلاً وفي يده كيس الفاكهة الورقي وبه ما لذ وطاب من الفاكهة، فيلقاه أبي ويهش له. يسلم خالي الأكبر على أمي ويدس في يدها شيئًا ما، فيتهلل وجهها يقوم له أبي ويوسع له مكانًا بالقُرب منه وهو يطبطب على ظهره ويردِّد في ودٍّ "زارنا النبي زارنا النبي"

تشير أمي إليَّ أن أقترب وتهمس في أذني أن أذهب إلى "عم محمد ذكي" على ناصية الشارع المجاور لنا لإسكات الزنانة "منى" حتى لا تفضحنا أمام خالي. أخطف النقود وأنا أعدو إلى خارج الدار. رنت من عيني أبي نظرة إلى ما يحدث وسكت والتفت إلى خالي يسأله عن أحواله وأحوال من يعمل عندهم في الزراعة.

لم يرجع خالي "عبد الغفار "إلى أولاده في الكفر هذه الليلة بل أقسم عليه والدي أن يبيت في المنزل حيثما سهرا حتى الساعة الثانية صباحًا، لبس خالي أحد ملابس والدي وتناول معنا طعام العشاء وأخذ يقص علينا الحكايات من كل صنفٍ ولون ونحن نستمع مفتوحي الفم وممتلئين بالخوف والترقب وأحيانًا الضحك حتى نقع على ظهورنا. أحضرت حقيبة "منى" فبارك لها كل الجالسين وضحكوا على براءتها حانت التفاتة من خالي إلى حقيبة منى وهو يقول:

- فكرتوني بأيام زمان أيام المدرسة في الفيوم.

أخذ يحكي لنا ما حدث له حينما ضربه أحد المدرسين فألقى حقيبته في الترعة وأقسم ألا يذهب إلى المدرسة ثانية، كل هذا ونحن نضحك وأنا أفكر في نفسي لو لم يفعل خالي "عبد الغفار" هذا يا ترى كان زمانه أصبح الآن مهندسًا أو طبيبًا كبيرًا.

المحتويات

"منامن" وألمٌ في الصدر 7
شبح ممدوح 13
وفاة ثريا 17
فادية ونفس الحلم 21
عودة أمي 25
رحيل "أم فهيم" 29
صرخات "عم عتمان" 33
حنين كتلة الخشب 37
أصوات من الماضي 41
فتاةٌ من عالم الجن 45
فادية وضياع الحلم 49
إهانة 53
الديك عويس 57
الخال ضيف 61
الأربعون حرامي 67
الخشب والطلقات النارية 71

الطوق والترعة 75
الممر المغلق 79
"أمير" ومدفن العائلة 83
خالي مستكة..... 87
رائحة الحارة 89
سلسلة فالصو 93
"عم عمار" وحكاياته 97
منامن وصورة الأسد 101
المقابلة 103
أبو شنب بقدونس 109
اعتداء ابنة عمران الفكهاني 113
موقف وقدر 117
عم نصار والشارع الثعباني..... 123
هند 127
حليم أبو قفا..... 131
إيمان والثعبان الفأر 135
شنطة "منى" 139
سيرة ذاتية مختصرة للكاتب 143